وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

سلسلة
وقفات تربوية
في ضوء القرآن الكريم

المجلد السابع عشر

ألهاكم التكاثر

[سورة التكاثر: ١]

عبد العزيز بن ناصر الجليل

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

إلا لمن أراد طبعه وتوزيعه
مجانًا
بعد أخذ الإذن من المؤلف

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ

رقم الإيداع: ٢٠١٧/١٧٥٠٣

ISBN: 798-977-430-226-8

القسطاوي
للطباعة والتجليد
٠٠٢٠١٠١٩٩٩٥٥٥

وقف لله تعالى
ولا يجوز بيعه

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المجلد السابع عشر

الموضوع — الصفحة

تمهيد ٩

• **الفصل الأول: شرح وتفسير سورة التكاثر، وما ورد في معناها من الآيات، وذكر ما فيها من الفوائد والدروس**

أولًا: تفسير سورة التكاثر ١٧

ثانيًا: ذكر بعض الآيات من كتاب الله عز وجل مما لها صلة بسورة التكاثر ٤٣

ذكر بعض الفوائد والدروس المستنبطة من سورة التكاثر وما ورد في معناها ٥٧

• **الفصل الثاني: ذكر بعض الأحاديث النبوية والآثار السلفية التي تحذر من الدنيا والتكاثر فيها** ٦٣

أولًا: الأحاديث ٦٣

ثانيًا: الآثار الواردة عن السلف في زهدهم وحذرهم من الدنيا والتكاثر فيها ٧٩

• **الفصل الثالث: ذكر بعض الأنواع والمجالات التي يتكاثر فيها الناس، ولا سيما في زماننا اليوم** ٨٧

أولًا: التكاثر في الأموال نقدًا وعينًا ٨٨

ثانيًا: التكاثر في الأولاد والأنساب ٩١
ثالثًا: التكاثر بالجاه والشهرة والرئاسات والشهادات والمناصب ٩٣
رابعًا: التكاثر بالأتباع والشيوخ ٩٤
خامسًا: التكاثر بالعلم والكتب ٩٨
سادسًا: التكاثر في المأكولات والمشروبات ١٠٦
سابعًا: التكاثر في اللباس والرياش والزينة ١١١
ثامنًا: التكاثر في اقتناء أجهزة التقنية المعاصرة ١١٤
تاسعًا: التكاثر في ألعاب الأطفال ووسائل ترفيههم ١١٥
عاشرًا: التكاثر في الأسفار والحل والترحال ١١٦
حادي عشر: التكاثر في الكلام والخطب والمحاضرات والمقابلات الإعلامية ١١٧
ثاني عشر: التكاثر بالجهاد والغزو والابتلاء في سبيل الله ١١٨
ثالث عشر: التكاثر في فعل المحرم واقتراف الظلم ونشر الفساد ١٢٠
• **الفصل الرابع: ذكر بعض الأضرار والآفات الناجمة عن التكاثر في هذه الدنيا** ١٢٥
أولًا: التعرض لسخط الله عز وجل وعقابه بالتفريط في أداء الواجبات والطاعات، والجرأة على المعاصي والمحرمات ١٢٥

ثانيًا: انتشار الحسد والأحقاد والفرقة والبغضاء بين الناس..... ١٣٠
ثالثًا: اختلال الموازين واضطراب التصورات وسفول الأخلاق..... ١٣٢
رابعًا: طول الأمل وضياع الأعمار ١٣٥
خامسًا: الطمع والجشع وعدم القناعة والتكبر على الناس..... ١٣٧
سادسًا: آفة الترف وما ينشأ عنها من الترهل والوهن والفسق وعدم تحمل المشاق وترك الجهاد والدعوة إلى الله ﷻ وضعف النفوس والاستسلام للأعداء..... ١٤١
سابعًا: كثرة الهموم والغموم والشعور بالاكتئاب وفقدان السعادة ١٤٨
• **الفصل الخامس: ذكر بعض الأسباب التي تقي بإذن الله تعالى من آفة التكاثر** ١٥٣
١- دعاء الله ﷻ واللجوء إليه والاستعانة به سبحانه في التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود..... ١٥٣
٢- العلم بالشرع والبصيرة في الدين ومعرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته الحسنى ١٥٥
٣- قراءة القرآن وتدبره والإكثار من ذكر الله تعالى وإدامته:..... ١٥٨
٤- الإكثار من ذكر الموت وزيارة القبور والمرضى وتشييع الجنائز ١٦٠

٥- محاسبة النفس في تقصيرها والتفكر في حقيقة
الدنيا وزوالها، والآخرة ودوامها ١٦٥
٦- الاعتكاف وترك فضول الاختلاط ١٧١
٧- مصاحبة أهل الخير الذين تذكر رؤيتهم وكلامهم
الآخرة، والقراءة في سير الزاهدين من السلف:..... ١٧٤
٨- ضرورة إحياء الوعظ في الأمة بمفهومه الشامل..... ١٧٦
٩- تعويد النفس ومن ثم اليد على السخاء والبذل في
سبيل الله ﷻ ١٧٧
• **الخاتمة:** وفيها مسائل: ١٧٩
المسألة الأولى: التوازن بين الدنيا والآخرة..... ١٧٩
المسألة الثانية: شمولية الوعظ لجميع شئون المسلم ظاهرًا وباطنًا..... ١٩٠
المسألة الثالثة: تنقية الوعظ مما شابه من المخالفات الشرعية..... ١٩٥

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا. أما بعد:

فإن المتأمل في حالنا نحن المسلمين اليوم، وحال زماننا، وما ظهر فيه من زخرف الحياة الدنيا وزينتها، وما حصل فيه من الانفتاح الكبير على الدنيا وزخرفها الفاني، وما ترتب على ذلك من التنافس والتكاثر والتفاخر فيها، حتى ظن أهلها أنهم قادرون عليها؛ أو أنهم مخلدون فيها... إن المتأمل في ذلك كله؛ ليشعر بالرهبة والخوف والإشفاق الشديد من هذه الحال، وما نتج عنها من غفلة عما خلقنا من أجله، وغفلة شديدة عن الآخرة وما فيها من نعيم أو جحيم دائمين، وما نجم عن ذلك من ركون إلى الدنيا وحطامها الزائل، ولم يسلم من هذه الغفلة إلا من رحم الله، وقليل ما هم.

وإن من الآيات التي تعد كفيلة بأن توقظنا من هذه الغفلة، وكفيلة بأن تورث في قلوبنا الخوف والخشية والوجل من هذا الحال

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧ - ٨]، وقوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١ - ٨].

وقوله ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**»[1] أسأل الله ﷻ أن يوقظنا من غفلتنا، وأن يرزقنا التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود.

وإن مما يؤكد ويلح على طرح هذا الموضوع ومدارسته والتواصي والتذكير به الأمور التالية:

الأمر الأول:

ما نشهده اليوم من انفتاح عظيم على متاع الدنيا وزخرفها وزينتها، الذي لم يشهد له التاريخ مثيلًا، وما صاحب ذلك من وسائل دعائية ماكرة، تدعو الناس إلى بهجة الحياة الدنيا ومتاعها الزائل،

(١) البخاري (٤٠١٥)، مسلم (٢٩٦١).

وتلاحق الناس بكل جديد من وسائل الترف والمتعة والزينة، تدعو الناس إليها وتسهل الوصول إليها وترغب الناس فيها، والركون إليها، وكأنهم مخلدون فيها فنسيت الآخرة، وأصبح الناس في لهث وراء الدنيا والتكاثر فيها، ومتابعة الجديد منها في كل صباح ومساء، حتى أصبحت عند كثير من الناس غاية يتنافسون فيها.

ولقد كان السلف رحمهم الله تعالى يتواصون بينهم في الحذر من الدنيا وعدم الركون إليها؛ مع أنهم لم يشهدوا هذه الفتنة العظمى التي نعيشها، فلا جرم إننا لأحوج منهم بكثير إلى هذا الحذر والتواصي والخوف والوجل.

الأمر الثاني:

ظهور التنافس والتكاثر والتفاخر بمتاع الدنيا وزينتها في هذا الزمان، بصورة لم يسبق لها مثيل، كما لم يسبق أن ظهرت أنواع وأشكال من التكاثر والتنافس كما ظهرت في زماننا اليوم، فبينما كان التكاثر والتفاخر بالأموال والأولاد والجاه فيما مضى من الأزمان فقد تميز زماننا بصور جديدة ومتنوعة من التكاثر في متاع الحياة الدنيا، فظهر بيننا التكاثر المريع في المساكن والعقار، وفي المراكب والملابس، وفي العلم واقتناء الكتب والمخطوطات، والتكاثر في الأتباع والمشايخ، كما

ظهر التكاثر في بيوت الكثير من الناس في الخدم والمطاعم والمشارب وولائم الزواج وغيرها.

وسيأتي في ثنايا الكتاب إن شاء الله تعالى ذكر مزيد لهذه المجالات والأنواع من التكاثر وتفصيلًا لها.

ومما يزيد من خطورة هذه الحال وصولها إلى حياة كثير من الدعاة والمشايخ وطلاب العلم - وما أبرئ نفسي - فكان لزامًا أن نحذر هذه الأحوال المخيفة وأن يكون للحديث عنها والكتابة عنها، نصيب وحضور، وذلك من باب التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

الأمر الثالث:

الأخطار العظيمة التي تنجم عن الركون إلى الدنيا والتكاثر في متاعها الزائل، ومن أعظم هذه الأخطار الغفلة عن الآخرة، والاستعداد لها، وما يترتب على هذه الغفلة من قسوة القلوب وقلة ذكر الله ﷻ، وترك الواجبات، وجرأة على المعاصي، وانتشار الحسد والمظالم بين الناس، وكفى بذلك خسرانًا مبينًا، وإثمًا عظيمًا...

قال الله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ

فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون: ٩ - ١٠]، ومن هذه الأخطار ما حل في حياة كثير منا بسبب التكاثر من الترهل والترف والوهن والعزوف عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله، مما جرأ أعداؤنا الكفرة على غزونا عسكريًّا، وفكريًّا، وأخلاقيًّا، وإهانتنا وإذلالنا.

الأمر الرابع:

ذلك التفرق والتدابر الحاصل اليوم بين ذوي الأرحام والإخوان، بل بين بعض الدعاة والمجاهدين والذي يمكن عزو كثير من أسبابه إلى هذه الدنيا، والتكاثر فيها، والغفلة عن الآخرة.

الأمر الخامس:

ما ظهر في عصرنا اليوم من أمراض نفسية كثيرة ومتنوعة لم تكن معهودة فيمن قبلنا، حيث انتشر القلق والاكتئاب وكثرة هموم الناس ومشاكلهم، ويمكن إرجاع كثير من هذه الأمراض إلى ضعف أعمال القلوب ونسيان الآخرة، والركون إلى الدنيا، والتكاثر فيها، وعدم القناعة والرضى بما قسم الله ﷻ من الرزق بين العباد، فكان لزامًا أن يحذر بعضنا بعضًا هذه الأخطار، وأن نتنبه لمعرفة أسبابها، ووسائل علاجها.

الأمر السادس:

ومع أهمية وخطورة هذا الموضوع إلا أن الكتابة فيه قليلة، بل إن الاعتناء به في دور العلم والتربية والدروس العلمية والمحاضن التربوية فيه قصور كبير، فكان من النصح للمسلمين ولا سيما دعاتهم وشبابهم الاهتمام بهذا الأمر والتنبه إليه وضرورة التكثيف من طرحه والتواصي به والتربية عليه. واتباع طريق السلف في الوعظ، وترقيق القلوب لا طريقة القصاص ومتنطعة الصوفية.

من أجل هذه الأمور وغيرها أكتب هذه الرسالة الجديدة في سلسلة (الوقفات التربوية في ضوء القرآن الكريم) وعنوانها: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ أنبه فيها نفسي وإخواني المسلمين إلى خطورة الركون إلى الدنيا والتكاثر فيها، وما ينجم عن ذلك من نسيان الآخرة، وضعف الاستعداد لها، وما يترتب على ذلك من مفاسد عظيمة على الفرد والمجتمع.

أسأل الله ﷻ أن ينفعني وإخواني المسلمين بها، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم.

وقد ضمنت هذه الرسالة الفصول التالية:

- الفصل الأول: شرح سورة التكاثر وما تضمنته من الدروس والفوائد وذكر ما في معناها من الآيات.

- الفصل الثاني: ذكر بعض الأحاديث النبوية، والآثار السلفية التي تحذر من الدنيا وخطورة التكاثر فيها.

- الفصل الثالث: ذكر بعض أنواع ومجالات التكاثر التي تحصل بين الناس ولا سيما في زماننا اليوم.

- الفصل الرابع: ذكر بعض الأخطار والآفات الناجمة عن التكاثر.

- الفصل الخامس: من وسائل الوقاية من التكاثر وأخطاره.

- الخاتمة: وفيها ثلاث مسائل:

الأولى: التوازن بين الدنيا والآخرة.

الثانية: شمولية الوعظ لجميع شئون المسلم ظاهرًا وباطنًا.

الثالثة: تنقية الوعظ مما شابه من المخالفات الشرعية.

الفصل الأول

شرح وتفسير سورة التكاثر وما ورد في معناها من الآيات وذكر ما فيها من الفوائد والدروس

أولًا: تفسير سورة التكاثر:

سأجعل المعتمد في تفسير هذه السورة تفسير ابن كثير رحمه الله تعالى لتوسعه في ذكر الروايات التي وردت في تفسير هذه السورة ومعناها، ثم أضيف على ذلك ما ورد في بعض التفاسير الأخرى مما لم يذكره ابن كثير رحمه الله تعالى، ثم أذكر بعد ذلك - إن شاء الله تعالى - الفوائد المستنبطة من هذه السورة، وما ورد في معناها من الآيات.

يقول الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ١ - ٨].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى «يقول تعالى: شغلكم حب الدنيا ونعيمها وزهرتها عن طلب الآخرة وابتغائها، وتمادى بكم ذلك حتى جاءكم الموت وزرتم المقابر، وصرتم من أهلها؟!

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا زكريا بن يحيى الوقار المصري، حدثني خالد بن عبدالدايم، عن ابن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ عن الطاعة، ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾: حتى يأتيكم الموت»[١].

وقال الحسن البصري: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ في الأموال والأولاد.

وفي صحيح البخاري، في «الرقاق» منه: وقال لنا أبو الوليد: حدثنا حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك، عن أبي بن كعب قال: كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ يعني: «**لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب**»[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة: سمعت قتادة يحدث عن مطرف - يعني ابن عبدالله بن الشِّخِّير - عن أبيه قال: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو يقول: «﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، **يقول ابن آدم: مالي مالي. وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟**».

ورواه مسلم والترمذي والنسائي، من طريق شعبة، به[٣].

---

(١) في هذا السند عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف.

(٢) البخاري (٦٤٣٩)، مسلم (١٠٤٨)، ونصه: «**لو أن لابن آدم واديًا من ذهب لأحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فاه إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**».

(٣) مسند أحمد ٤/ ٢٤، مسلم (٢٩٥٨)، النسائي ٦/ ٢٣٨.

وقال مسلم في صحيحه: حدثنا سوَيد بن سعيد، حدثنا حفص بن ميسرة، عن العلاء، عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول العبد مالي مالي؟ وإنما له من ماله ثلاث ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فاقتنى**[١]**، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس**» تفرد به مسلم[٢].

وقال البخاري: حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عبدالله ابن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، سمع أنس بن مالك يقول: قال رسول الله ﷺ: «**يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى معه واحد: يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله**».

وكذا رواه مسلم والترمذي والنسائي، من حديث سفيان بن عيينة، به[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى، عن شعبة، حدثنا قتادة، عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «**يهرم ابن آدم، وتبقى منه اثنتان: الحرص والأمل**». أخرجاه في الصحيحين[٤].

---

(١) في نسخة (فأبقى).
(٢) مسلم (٢٩٥٩).
(٣) البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).
(٤) المسند ٣/ ١١٥، البخاري (٦٤٢١)، ومسلم (١٠٤٧)، واللفظ لمسلم.

وذكر الحافظ ابن عساكر، في ترجمة الأحنف بن قيس - واسمه الضحاك - أنه رأى في يد رجل درهمًا فقال: لمن هذا الدرهم؟ فقال الرجل: لي، فقال: إنما هو لك إذا أنفقته في أجر أو ابتغاء شكر. ثم أنشد الأحنف متمثلًا قول الشاعر:

أنتَ للمال إذا أمسكتَه فإذا أنفقتَه فالمالُ لَكْ

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة قال: صالح بن حيان حدثني عن ابن بريدة في قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾. قال نزلت في قبيلتين من قبائل الأنصار، في بني حارثة وبني الحارث، تفاخروا وتكاثروا، فقالت إحداهما: فيكم مثلُ فلان ابن فلان، وفلان؟ وقال الآخرون مثل ذلك، تفاخروا بالأحياء، ثم قالوا: انطلقوا بنا إلى القبور. فجعلت إحدى الطائفتين تقول: فيكم مثل فلان؟ يشيرون إلى القبر - ومثل فلان؟ وفعل الآخرون مثل ذلك، فأنزل الله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، لقد كان لكم فيما رأيتم عبرة وشغل.

وقال قتادة: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾: كانوا يقولون: نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعدُّ من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم.

والصحيح أن المراد بقوله: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾، أي: صرتم إليها ودفنتم فيها، كما جاء في الصحيح: أن رسول الله ﷺ دخل على رجل من الأعراب يعوده، فقال: «**لا بأس، طهور إن شاء الله**» فقال: قلت: طَهُور؟! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور! قال: «**فَنَعَم إذًا**»(١).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا محمد بن سعيد الأصبهاني، أخبرنا حكام بن سلم الرازي، عن عمرو بن أبي قيس، عن الحجاج، عن المنْهال، عن زر بن حُبَيش، عن علي قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾.

ورواه الترمذي عن أبي كريب، عن حَكَّام بن سلم، به، وقال: غريب(٢).

وقال ابن أبي حاتم: حدثناأبي، حدثنا سلمة بن داود العُرضي، حدثنا أبو المليح الرقي، عن ميمون بن مهران قال: كنت جالسًا عند عمر بن عبدالعزيز، فقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ فلبث هُنَيهة فقال: يا ميمون، ما أرى المقابر إلا زيارة، وما للزائر بد من أن يرجع إلى منزله.

---

(١) صحيح البخاري (٥٦٦٢).
(٢) سنن الترمذي (٣٣٥٥)، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي.

قال أبو محمد: يعني أنه يرجع إلى منزله - إلى جنة أو نار. وهكذا ذكر أن بعض الأعراب سمع رجلًا يتلو هذه الآية: ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ فقال: بعث القوم ورب الكعبة. أي: إن الزائر سيرحل من مقامه ذلك إلى غيره.

وقوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾: قال الحسن البصري: هذا وعيد بعد وعيد.

وقال الضحاك: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾، يعني: الكفار، ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني: أيها المؤمنون.

وقوله: ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴾ أي: لو علمتم حق العلم، لما ألهاكم التكاثر عن طلب الدار الآخرة، حتى صرتم إلى المقابر.

ثم قال: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾ هذا تفسير الوعيد المتقدم، وهو قوله: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ توعدهم بهذا الحال، وهي رؤية النار، التي إذا زفرت زفرة خَرَّ كل ملك مقرب، ونبي مرسل على ركبتيه، من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال، على ما جاء به الأثر المروي في ذلك.

وقوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي: ثم لتسألن يومئذ عن شكر ما أنعم الله به عليكم، من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك. ما إذا قابلتم به نعمه من شكره وعبادته.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعَة، حدثنا زكريا بن يحيى الخزاز المقري، حدثنا عبدالله بن عيسى أبو خالد الخزاز، حدثنا يوسف ابن عبيد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه سمع عمر بن الخطاب يقول: خرج رسول الله ﷺ عند الظهيرة، فوجد أبا بكر في المسجد فقال: «**ما أخرجك هذه الساعة؟**» قال: أخرجني الذي أخرجك يا رسول الله. قال: وجاء عمر بن الخطاب فقال: «**ما أخرجك يا ابن الخطاب؟**» قال: أخرجني الذي أخرجكما. قال: فقعد عمر، وأقبل رسول الله ﷺ يحدثهما، ثم قال: «**هل بكما من قوة، تنطلقان إلى هذا النخل فتصيبان طعامًا وشرابًا وظلًّا؟**» قلنا: نعم. قال: «**مروا بنا إلى منزل ابن التيهان أبي الهيثم الأنصاري**». قال: فتقدم رسول الله ﷺ بين أيدينا، فسلم واستأذن - ثلاث مرات - وأم الهيثم من وراء الباب تسمع الكلام، تريد أن يزيدها رسول الله ﷺ من السلام، فلما أراد أن ينصرف خرجت أم الهيثم تسعى خلفهم، فقالت: يارسول الله، قد - والله - سمعت تسليمك، ولكن أردت أن تزيدنا من سلامك. فقال: لها رسول الله ﷺ: «خيرًا» ثم قال: «**أين أبو الهيثم؟ لا أراه**». قالت: يا رسول الله، هو قريب ذهب يستعذب الماء، ادخلوا فإنه يأتي الساعة إن شاء الله، فبسطت - بساطًا تحت شجرة، فجاء أبو الهيثم ففرح بهم وقرت عيناه بهم، فصعد على نخلة فصرم لهم أعذاقًا، فقال له رسول الله ﷺ: «**حسبك يا أبا الهيثم**». قال: يا رسول الله، تأكلون

من بسره، ومن رطبه، ومن تذنوبه، ثم أتاهم بماء فشربوا عليه، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا من النعيم الذي تسألون عنه**»[١]. هذا غريب من هذا الوجه.

وقال ابن جرير: حدثني الحسين بن علي الصدائي، حدثنا الوليد ابن القاسم، عن يزيد بن كيسان، عن أبي حازم عن أبي هريرة قال: بينما أبو بكر وعمر جالسان، إذ جاءهما النبي ﷺ فقال: «**ما أجلسكما ها هنا؟**» قالا: والذي بعثك بالحق ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع. قال: «**والذي بعثني بالحق ما أخرجني غيره**». فانطلقوا حتى أتوا بيت رجل من الأنصار، فاستقبلتهم المرأة، فقال لها النبي ﷺ: «**أين فلان؟**» فقالت: ذهب يستعذب لنا ماء. فجاء صاحبهم يحمل قربته فقال: مرحبا، ما زار العباد شيء أفضل من شيء زارني اليوم. فعلق قربته بكرب نخلة، وانطلق فجاءهم بعذق، فقال النبي ﷺ: «**ألا كنت اجتنيت**»؟ فقال: أحببت أن تكونوا الذين تختارون على أعينكم. ثم أخذ الشفرة، فقال النبي ﷺ: «**إياك والحلوب؟**» فذبح لهم يومئذ، فأكلوا. فقال النبي ﷺ: «**لتسئلن عن هذا يوم القيامة. أخرجكم من بيوتكم الجوع، فلم ترجعوا حتى أصبتم هذا، فهذا من النعيم**»[٢].

---

(١) رواه الطبراني في الكبير ١٩/ ٢٥٣ وقال الهيثمي في المجمع، فيه عبدالله بن عيسى، وهو ضعيف ١٠/ ٣١٧.

(٢) تفسير الطبري ٢٤/ ٥٨٣-٥٨٤.

ورواه مسلم من حديث يزيد بن كيسان، به[١]. ورواه أبو يعلى وابن ماجة، من حديث المحاربي، عن يحيى بن عُبيد الله، وعن أبيه، عن أبي هريرة، عن أبي بكر الصديق، به. وقد رواه أهل السنن الأربعة، من حديث عبدالملك بن عمير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، بنحو من هذا السياق وهذه القصة[٢].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُريج، حدثنا حشرج، عن أبي نُصرة، عن أبي عسيب - يعني مولى رسول الله ﷺ قال خرج رسول الله ﷺ ليلًا فمر بي فدعاني فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطًا لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: «**أطعمنا**» فجاء بعذق فوضعه، فأكل رسول الله ﷺ وأصحابه، ثم دعا بماء بارد فشرب، وقال: «**لتسئلن عن هذا يوم القيامة**». قال: فأخذ عمر العذق فضرب به الأرض، حتى تناثر البسر قبل رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله، إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: «**نعم، إلا من ثلاثة: خرقة لف بها الرجل عورته، أو كسرة سد بها جوعته، أو جحر تدخل فيه من الحر والقر**»[٣]. تفرد به أحمد.

---

(١) مسلم (٢٠٣٨).
(٢) ابن ماجة (٣١٨١)، ومسند أبي يعلى ١/ ٧٩.
(٣) مسند أحمد ٥/ ٨١.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عبدالصمد، حدثنا حماد، حدثنا عمار، سمعت جابر بن عبدالله يقول: أكل رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رطبًا، وشربوا ماء، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا من النعيم الذين تسألون عنه**».

ورواه النسائي، من حديث حماد بن سلمة (عن عمار بن أبي عمار عن جابر)، به[1].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا محمد بن عمرو، عن صفوان بن سليم، عن محمود بن الربيع قال: لما نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فقرأ حتى بلغ: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، قالوا: يا رسول الله، عن أي نعيم نُسأل؟ وإنما هما الأسودان الماء والتمر، وسيوفنا على رقابنا، والعدو الحاضر، فعن أي نعيم نسأل؟ قال: «**أما إن ذلك سيكون**»[2].

وقال أحمد: حدثنا أبو عامر، عبدالملك بن عمرو، حدثنا عبدالله ابن سليمان، حدثنا معاذ بن عبدالله بن حبيب، عن أبيه، عن عمه قال: كنا في مجلس فطلع علينا النبي ﷺ وعلى رأسه أثر ماء، فقلنا: يا رسول الله، نراك طيب النفس. قال: «أجل». قال: ثم خاض الناس في ذكر الغنى، فقال رسول الله ﷺ: «**لا بأس بالغنى لمن اتقى**

---

(١) المسند ٣/ ٣٥١ وسنن النسائي ٦/ ٢٤٦.
(٢) المسند ٥/ ٤٢٩.

الله، والصحة لمن اتقى الله خير من الغنى، وطيب النفس من النعيم». ورواه ابن ماجة، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن خالد بن مخلد، عن عبدالله بن سليمان، به[١].

وقال الترمذي: حدثنا عبد بن حميد، حدثنا شبابة، عن عبدالله بن العلاء، عن الضحاك بن عبدالرحمن بن عرزم الأشعري قال: سمعت أبا هريرة يقول: قال النبي ﷺ: «**إن أول ما يسأل عنه** - يعني يوم القيامة - **العبد من النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسمك، ونرويك من الماء البارد؟**». تفرد به الترمذي، ورواه ابن حبان في صحيحه، من طريق الوليد بن مسلم، عن عبدالله بن العلاء بن زَبْر، به[٢].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا مسدد، حدثنا سفيان، عن محمد بن عمرو، عن يحيى بن حاطب، عن عبدالله بن الزبير قال: قال الزبير: لما نزلت ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، قالوا: يا رسول الله، لأي نعيم نسأل عنه، وإنما هما الأسودان: التمر والماء؟ قال: «**إن ذلك سيكون**». وكذا رواه الترمذي وابن ماجة، من حديث سفيان - هو ابن عيينة - به[٣]. ورواه أحمد عنه[٤]، وقال الترمذي: حسن.

---

(١) المسند ٥/ ٣٧٢، وابن ماجة (٢١٤١) وقال البوصيري في الزوائد الثمانية: هذا إسناد صحيح، ورجاله ثقات ٢/ ٩٥٨.

(٢) سنن الترمذي (٣٣٥٨) وصحيح ابن حبان (٧٣٢٠) (الإحسان).

(٣) الترمذي (٣٣٥٦) ابن ماجة (٤١٥٨).

(٤) المسند ١/ ١٧٤.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عبدالله الطهراني، حدثنا حفص بن عمر العدني، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، قالت الصحابة: يا رسول الله، وأي نعيم نحن فيه، وإنما نأكل في أنصاف بطوننا خبز الشعير؟ فأوحى الله إلى نبيه ﷺ: قل لهم: أليس تحتذون النعال، وتشربون الماء البارد؟ فهذا من النعيم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا إبراهيم بن موسى، أخبرنا محمد بن سليمان بن الأصبهاني، عن ابن أبي ليلى - أظنه عن عامر - عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، قال: «**الأمن والصحة**»(١).

وقال زيد بن أسلم، عن رسول الله ﷺ: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ يعني: شبع البطون، وبارد الشراب، وظلال المساكن، واعتدال الخلق، ولذة النوم. رواه ابن أبي حاتم بإسناده المتقدم، عنه في أول السورة.

وقال سعيد بن جبير: حتى عن شربة عسل، وقال: مجاهد: عن كل لذة من لذات الدنيا. وقال الحسن البصري: نعم الغداء والعشاء، وقال أبو قلابة: من النعيم أكل العسل والسمن بالخبز النقي. وقول مجاهد هذا أشمل هذه الأقوال.

---

(١) رواه عبدالله بن أحمد في زوائد الزهد (٨٥٥).

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، قال: النعيم: صحة الأبدان والأسماع والأبصار، يسأل الله العباد فيما استعملوها، وهو أعلم بذلك منهم، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

وثبت في صحيح البخاري، وسنن الترمذي والنسائي وابن ماجة، من حديث عبدالله بن سعيد بن أبي هند، عن أبيه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**»(١).

ومعنى هذا: أنهم مقصرون في شكر هاتين النعمتين، لا يقومون بواجبهما، ومن لا يقوم بحق ما وجب عليه، فهو مغبون.

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا القاسم بن محمد بن يحيى المروزي، حدثنا علي بن الحسن بن شقيق، حدثنا أبو حمزة، عن ليث، عن أبي فزارة، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما فوق الإزار، وظل الحائط، وخبز، يحاسب به العبد يوم القيامة، أو يسأل عنه**»(٢)، ثم قال: لا نعرفه إلا بهذا الإسناد.

---

(١) البخاري (٦٤١٢).

(٢) مسند البزار (٣٦٤٣)، وقال في كشف الأستار: وليث بن سليم: ضعيف.

وقال الإمام أحمد: حدثنا بهز وعفان قال: حدثنا حماد - قال عفان في حديثه: قال إسحاق بن عبدالله، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «يقول الله ﷻ - قال عفان: يوم القيامة -: يا ابن آدم، حملتك على الخيل والإبل، وزوجتك النساء، وجعلتك تربع وترأس، فأين شكر ذلك؟»[١]. تفرد به من هذا الوجه)[٢].

وبعد هذا النقل المفصل من تفسير ابن كثير رحمه الله في تفسير سورة التكاثر أنقل فيما يأتي ما ذكره بعض المفسرين حول هذه السورة مما لم يذكره ابن كثير رحمه الله:

ذكر البقاعي في نظم الدرر المناسبة بين سورة التكاثر والسورة التي قبلها وهي سورة القارعة، فقال:

(لما أثبت في القارعة أمر الساعة، وقسم الناس فيها إلى شقي وسعيد، وختم بالشقي، افتتح هذه بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر، لينزجر السامع عن هذا السبب، ليكون من القسم الأول، فقال ما حاصله: انقسمتم فكان قسم منكم هالكًا لأنه ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي أغفلكم إلا النادر منكم غفلة عظيمة عن الموت، الذي هو وحده كاف في البعث على الزهد، فكيف بما بعده ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ وهو المباهاة والمفاخرة بكثرة الأعراض الفانية من متاع الدنيا: المال والجاه والبنين

(١) مسند أحمد ٢/ ٤٩٢.
(٢) تفسير ابن كثير ط دار طيبة تحقيق: سامي السلامة ٨/ ٤٧٢ - ٤٧٨.

ونحوها، مما هو شاغل عن الله، فكان ذلك موجبًا لصرف الهمة كلها إلى الجمع، فصرفكم ذلك إلى اللهو، فأغفلكم عما أمامكم من الآخرة والدين الحق وعن ذكر ربكم وعن كل ما ينجيكم من سخطه، أو عن المنافسة في الأعمال الموصلة إلى أعلى الدرجات بكثرة الطاعات، وذلك كله لأنكم لا تسلمون بما غلب عليكم من الجهل الذي سببه شهوة النفس وحب الراحة فخفت موازينكم. وحذف هذا الشيء الملهو عنه لتعظيمه والدلالة على أنه ليس غيره مما يؤسف على اللهو عنه.

وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما تقدم ذكر القارعة وعظيم أهوالها، أعقب بذكر ما شغل وصد عن الاستعداد لها وألهى عن ذكرها، وهو التكاثر بالعدد والقرابات والأهلين، فقال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ وهو في معرض التهديد والتقريع، وقد أعقب بما يعضد ذلك، وهو قوله ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ثم قال: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ وحذف جواب ﴿لَوْ﴾ والتقدير: ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ (لما شغلكم) التكاثر، قال ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا**[1] الحديث»، وقوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جواب لقسم مقدر، أي والله لترون الجحيم، وتأكد بها التهديد، وكذا ما بعد إلى آخر السورة... انتهى[2].

---

(١) البخاري (٤٦٢١)، ومسلم (٢٣٥٩).

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٢٢/ ٢٢٥- ٢٢٦.

وقال أيضًا: (وقال سبحانه معبرًا بأم الروادع، وجامعة الزواجر والصوادع: ﴿كَلَّا﴾ أي ارتدعوا أتم ردع، وانزجروا أعظم زجر عن الانشغال بما لا يجدي، فإنه ليس الأمر كما تظنون من أن الفخر في المكاثرة بالأعراض الدنيوية، ولم تخلقوا لذلك، إنما خلقتم لأمر عظيم، فهو الذي يهمكم فاشتغلتم عنه بما لا يهمكم، فكنتم لاهين كمن كان يكفيه كل يوم درهم فاشتغل بتحصيل أكثر، وكذا من ترك المهم من التفسير واشتغل بالأقوال الشاذة، أو ترك المهم من الفقه واشتغل بنوادر الفروع وعلل النحو وغيرها، وترك ما هو أهم منه مما لا عيش له إلا به.

ولما كان الردع لا يكون إلا عن ضار يجر وبالًا وحسرة، دل على ذلك بقوله استئنافًا: ﴿سَوْفَ﴾ أي بعد مهلة طويلة يتذكر فيها من تذكر ﴿تَعْلَمُونَ﴾ أي يتجدد لكم العلم بوعد لا خلف فيه بما أنتم عليه من الخطأ عن معاينة ما يكشفه الموت ويجر حزنه الفوت من عاقبة ذلك ووباله[1].

وقال أيضًا عند قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾:

قال مفخمًا بأداة التراخي: ﴿ثُمَّ﴾ أي بعد أمور طويلة عظيمة مهولة جدًّا ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ وعزتنا ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي إذ ترون الجحيم ﴿عَنِ

(١) نظم الدرر للبقاعي ٢٢/ ٢٢٨- ٢٢٩.

ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي الذي أداكم التكاثر إليه حتى عن الماء البارد في الصيف والحار في الشتاء. هل كان استمتاعكم به على وجه السرف لإرادة الترف، أو كان لإرادة القوة للنشأة إلى الخير فلم يخرج عن السرف. فالمؤمن المطيع يسأل سؤال تشريف، والعاصي يسأل سؤال توبيخ وتأفيف. ولام النعيم قد تكون لمطلق الجنس... وقد التحم آخر السورة بأولها على وجه هو من ألطف الخطاب، وأدق المسالك في النهي عما يجر إلى العذاب، لأن العاقل إذا علم أن بين يديه سؤالًا عن كل ما يتلذذ به علم أنه يعوقه ذلك في زمن السؤال عن لذاذات الجنة العوال الغوال، فكان خوفه من مطلق السؤال مانعًا له عن التنعم بالمباح، فكيف بالمكروه؟! فكيف ثم كيف بالمحرم؟ فكيف إذا كان السؤال من ملك تذوب لهيبته الجبال؟ فكيف إذا كان السؤال على وجه العتاب؟ فكيف إذا جر إلى العذاب؟ فتأمل كلام خالقك ما ألطف إشاراته وأجل عباراته في نذاراته وبشاراته، والله أرحم[1].

وذكر الإمام القرطبي رحمه الله تعالى مسائل في تفسير سورة التكاثر منها قوله:

(الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱلْمَقَابِرَ﴾ جمع مَقبَرة ومقبُرة (بفتح الباء وضمها). والقبور جمع القبر، قال:

---

(١) المصدر نفسه ٢٢/ ٢٣١، ٢٣٢ (باختصار).

أَرَى أَهْلَ القُصُور إذا أُمِيتُوا بَنَوْا فوق المقابر بالصّخورِ
أَبَوْا إلا مُباهَاةً وفَخْرًا على الفقراءِ حتى في القُبورِ

وقد جاء في الشعر (المَقْبَر)، قال:

لكل أناس مقبر بفنائهم فهم ينقصون والقبور تزيد

وهو المقْبُري والمقْبَريّ: لأبي سعيد المقبُريّ وكان يسكن المقابر. وقَبَرت المَيتَ أقبُرُهُ وأقبرُهُ قبرًا؛ أي دفنته. وأقبرته؛ أي أمرت بأن يقبر. وقد مضى في سورة (عبس) القول فيه. والحمد لله.

الرابعة: لم يأت في التنزيل ذكر المقابر إلا في هذه السورة. وزيارتها من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت والآخرة. وذلك يحمل على قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها. قال النبي ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكر الآخرة**»[(١)]، رواه ابن مسعود أخرجه ابن ماجة. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة: «**فإنها تذكر الموت**»[(٢)]. وفي الترمذيّ عن بريدة «**فإنها تذكر الآخرة**»[(٣)] قال: هذا حديث حسن صحيح.

(١) ابن ماجه (١٥٧١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤٢٧٩).
(٢) مسلم (٩٧٦).
(٣) أخرجه الترمذي (١٠٥٤) وهو صحيح.

الخامسة: قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين.

فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه؛ فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة من احتُضِر، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة فلذلك كان أبلغ من الأول، فقال ﷺ: «**ليس الخبر كالمعاينة**»[1]. رواه ابن عباس.

فأما الاعتبار بحال المحتضرين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات.

وأما زيارة القبور فوجدوها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر. فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب،

---

(١) مسند أحمد ١/ ٢١٥، وابن حبان (٦٢١٣).

بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر، فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه.

فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه، الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال؛ كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريفهم وتلادهم.

وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب، وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وليُحضر بقلبه ذكر من كان مترددًا في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما حوله وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله.

وعند هذا التذكر والاعتبار تزول عنه الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه)[1].

---

(١) تفسير القرطبي ٢٠/ ١٢٨- ١٣٠ (باختصار).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن هذه السورة.

(ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها وما تضمنته من تحذير الملهي وانطباق معناها على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها، ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها، والله أعلم.

تأمل ما في هذ العتاب الموجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها إلى أن زار القبور ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه، فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات، وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتبين لك أن العموم مقصود، وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به، ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا على اختلاف أجناسها وأنواعها، وأيضًا فإن التكاثر تفاعل؛ وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكثر صاحبه فيكون أكثر منه فيما يكاثره به، والحامل له على ذلك توهمه أن العزة للتكاثر، كما قيل.

ولست بالأكثر منهم حصى... وإنما العزة للكاثر[1].

---

(١) هذا البيت ينسب لأعشى قيس. والتكاثر لغة مصدر قولهم تكاثر فلان وفلان، أي قال كل منهما: أنا أكثر منك في كذا. أو طلب أن يكون كذلك، وهو مأخوذ من مادة (ك ث ر) التي تدل على خلاف القلة.

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة ولم تضرهم، إذ لم يتكاثروا بها. وكل من كاثر انسانًا في دنياه أو جاهه أو غير ذلك شغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة.

فالنفوس العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليه نفعه وتكمل به وتزكو وتصير مفلحة، فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك، وينافسها في هذه المكاثرة ويسابقها إليها، فهذا هو التكاثر، الذي هو غاية سعادة العبد، وضده تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم، فهذا تكاثر مله عن الله والدار الآخرة هو صائر إلى غاية القلة؛ فعاقبة هذا التكاثر قل وفقر وحرمان، والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله ولقائه وعاقبته الكثرة الدائمة، التي لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولًا، وأحسن منه عملًا وأغزر علمًا، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير، يعجز عن لحاقه فيها كاثره بخصلة أخرى هو قادر على المكاثرة بها، وليس هذا التكاثر مذمومًا ولا قادحًا في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة واستباق الخيرات، وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج ﷺ في تصاولهم بين يدي رسول الله، ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره.

وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر ﷺ، فلما تبين له مدى سبقه له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا.

ومن تأمل حسن موقع ﴿ كَلَّا ﴾ في هذا الموضع، فإنها تضمنت ردعًا لهم، وزجرًا عن التكاثر ونفيًا وإبطالًا لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم وعزتهم وكمالهم به.

فتضمنت اللفظة نهيًا ونفيًا، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علمًا بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا، التي ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم: من أين استخرجوها وفيما صرفوها؟

فلله ما أعظمها من سورة وأجلها وأعظمها فائدة، وأبلغها موعظة وتحذيرًا، وأشدها ترغيبًا في الآخرة وتزهيدًا في الدنيا على غاية اختصارها، وجزالة ألفاظها، وحسن نظامها، فتبارك من تكلم بها حقًّا، وبلغها رسوله عنه وحيًا.

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة، وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين؛ فكيف بهم وهم في الطريق

في هذه الدار، فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة، ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر، فهنا ثلاثة أمور، عبر السبيل في هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار)[١].

ويذكر ابن القيم رحمه الله تعالى الفرق بين ﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾، و﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ الواردين في السورة.

فيقول: (الفرق بين (علم اليقين) و(عين اليقين): كالفرق بين الخبر الصادق والعيان. وحق اليقين: فوق هذا.

وقد مثلت المراتب الثلاثة بمن أخبرك: أن عنده عسلًا وأنت لا تشك في صدقه، ثم أراك إياه فازددت يقينًا، ثم ذقت منه: فالأول: علم اليقين، والثاني: عين اليقين، والثالث: حق اليقين.

فعلمنا الآن بالجنة: علم يقين، فإذا أزلفت الجنة في الموقف للمتقين وشاهدها الخلائق، وبرزت الحجيم للغاوين وعاينها الخلائق فذلك: عين اليقين، فإذا أدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار: فذلك حينئذ حق اليقين)[٢].

ويقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى:

---

(١) التفسير القيم ص ٢٣٢- ٢٣٤.
(٢) مدارج السالكين ٣/ ٢٢٩ ط دار طيبة.

(هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق، وكأنما هي صوت نذير، قائم على شرف عال، يمد بصوته ويدوي بنبرته. يصيح بنوَّم غافلين مخمورين سادرين، أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة، وحسهم مسحور. فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾.

أيها السادرون المخمورون، أيها اللاهون المتكاثرون بالأموال والأولاد، وأعراض الحياة وأنتم مفارقون، أيها المخدوعون بما أنتم فيه عما يليه، أيها التاركون ما تتكاثرون فيه وتتفاخرون إلى حفرة ضيقة لا تكاثر فيها، ولا تفاخر.. استيقظوا وانظروا.. فقد ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾.

ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هناك بعد زيارة المقابر في إيقاع رزين: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ويكرر هذا الإيقاع بألفاظه وجرسه الرهيب الرصين: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

ثم يزيد التوكيد عمقًا ورهبة. وتلويحًا بما وراءه من أمر ثقيل. لا يتبينون حقيقته الهائلة في غمرة الخمار والاستكثار: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾.

ثم يكشف عن هذه الحقيقة المطوية الرهيبة: ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴾.

ثم يؤكد هذه الحقيقة، ويعمق وقعها الرهيب في القلوب: ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴾.

ثم يلقي بالإيقاع الأخير، الذي يدع المخمور يفيق، والغافل يتنبه، والسادر يتلفت، والناعم يرتعش ويرتجف مما في يديه من نعيم: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾!

لتسألن عنه من أين نلتموه؟ وفيم أنفقتموه؟ أمن طاعة وفي طاعة؟ أم من معصية وفي معصية؟ أمن حلال وفي حلال؟ أم من حرام وفي حرام؟. هل شكرتم؟ هل أديتم؟ هل شاركتم؟ هل استأثرتم.

﴿لَتُسْـَٔلُنَّ﴾ عما تتكاثرون به وتتفاخرون.. فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم، ولكن وراءه ما وراءه من هم ثقيل!

إنها سورة تعبر بذاتها عن ذاتها. وتلقي في الحس ما تلقي بمعناها وإيقاعها، وتدع القلب مثقلًا مشغولًا بهم الآخرة عن سفساف الحياة الدنيا وصغائر اهتماماتها، التي يهش لها الفارغون!

إنها تصور الحياة الدنيا كالومضة الخاطفة في الشريط الطويل.. ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾.. وتنتهي ومضة الحياة وتنطوي صفحاتها الصغيرة.. ثم يمتد الزمن بعد ذلك وتمتد الأثقال؛ ويقوم الأداء التعبيري ذاته بهذا الإيحاء. فتتسق الحقيقة مع النسق التعبيري الفريد..

وما يقرأ الإنسان هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة، بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد في مطلعها، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق في نهايتها.. حتى يشعر بثقل ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض، ثم يحمل ما يحمل منها ويمضي به مثقلًا في الطريق! ثم ينشئ يحاسب نفسه على الصغير والزهيد!!![1].

ثانيًا: ذكر بعض الآيات من كتاب الله ﷻ مما لها صلة بسورة التكاثر

الآية الأولى:

قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

---

(١) في ظلال القرآن سيد قطب (تفسير سورة التكاثر)

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذه الآية: (أخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهد لأولي الأبصار، إنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان واللعب واللهو لا حقيقة لها، وأنها مشغلة للنفس مضيعة للوقت، يقطع بها الجاهلون فيذهب ضائعًا في غير شيء.

ثم أخبر أنها زينة للعيون وللنفوس، فأخذت بالعيون والنفوس استحبابًا ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة. ولما آثرتها على الآجل الدائم الذي هو خير وأبقى.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عنها أنها يُفاخر بعضنا بعضًا بها، فيطلبها، ليفخر بها على صاحبه، وهذا حال كل من طلب شيئًا للمفاخرة من مالٍ أو جاه أو قوة أو علم أو زهد.

والمفاخرة نوعان: مذمومة ومحمودة.

فالمذمومة: مفاخرة أهل الدنيا بها.

والمحمودة: أن يطلب المفاخرة في الآخرة، فهذه من جنس المنافسة المأمور بها، وهي أن الرجل ينفس على غيره بالشيء، ويغار أن يناله دونه، ويأنف من ذلك ويحمي أنفه له.

يقال: نفست عليه الشيء، أنفسه نفاسة إذا ضننت به، ولم تحب أن يصير إليه دونك، والتنافس تفاعل من ذلك، كأن كل واحد من المتنافسين يريد أن يسبق صاحبه إليه، وحقيقة المنافسة الرغبة التامة والمبادرة والمسابقة إلى الشيء النفيس.

ثم أخبر تعالى عنها أنها تكاثر في الأموال والأولاد، فيجب على كل واحد أن يكثر بني جنسه في ذلك، ويفرح بأن يرى نفسه أكثر من غيره مالًا وولدًا، وأن يقال فيه ذلك، وهذا من أعظم ما يلهي النفوس عن الله والدار الآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، والتكاثر في كل شيء؛ فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة، فهو داخل في حكم هذه الآية، فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال ، ومنهم من يلهيه التكاثر بالجاه أو العلم، فيجمعه تكاثرًا وتفاخرًا، وهذا أسوأ حالًا عند الله ممن يكثر بالمال والجاه فإنه جعل أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه، استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن مصير الدنيا وحقيقتها، وأنها بمنزلة غيث أعجب الكفار نباته.

والصحيح - إن شاء الله - أن الكفار هم الكفار بالله، وذلك عرف القرآن حيث ذكروا بهذا النعت في كل موضع، ولو أراد الزراع، لذكرهم باسمهم الذي يعرفون به كما ذكرهم به في قوله: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩]، وإنما خص الكفار به لأنهم أشد إعجابًا بالدنيا، فإنهم دارهم التي لها يعملون ويكدحون؛ فهم أشد إعجابًا بزينتها وما فيها من المؤمنين.

ثم ذكر سبحانه عاقبة هذا النبات وهو اصفراره ويبسه، وهذا آخر الدنيا ومصيرها، ولو ملكها العبد من أولها إلى آخرها فنهايتها ذلك، فإذا كانت الآخرة انقلبت الدنيا واستحالت إلى عذاب شديد، أو مغفرة من الله وحسن ثوابه وجزائه)[1].

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله عن هذه الآيات:

(يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا وما هي عليه، ويبين غايتها وغاية أهلها، بأنها لعب ولهو، تلعب بها الأبدان، وتلهو بها القلوب، وهذا مصداقه ما هو موجود وواقع من أبناء الدنيا، فإنك تجدهم قد قطعوا أوقات أعمارهم بلهو القلوب، والغفلة عن ذكر الله وعما أمامهم من الوعد والوعيد، وتراهم قد اتخذوا دينهم لعبًا ولهوًا، بخلاف أهل اليقظة وعمال الآخرة، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله، ومعرفته

(١) عدة الصابرين ص٢٨٠، ٢٨١ تحقيق سليم الهلالي دار ابن الجوزي.

ومحبته، وقد أشغلوا أوقاتهم بالأعمال التي تقربهم إلى الله، من النفع القاصر والمتعدي.

وقوله: ﴿وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: تزين في اللباس والطعام والشراب، والمراكب والدور والقصور والجاه. وغير ذلك. ﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: كل واحد من أهلها يريد مفاخرة الآخر، وأن يكون هو الغالب في أمورها، والذي له الشهرة في أحوالها، ﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: كل يريد أن يكون هو الكاثر لغيره من المال والولد، وهذا مصداقه، وقوعه من محبي الدنيا والمطمئنين إليها.

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها، فجعلها معبرًا ولم يجعلها مستقرًّا، فنافس فيما يقربه إلى الله، واتخذ الوسائل التي توصله إلى الله، وإذا رأى من يكاثره وينافسه بالأموال والأولاد، نافسه بالأعمال الصالحة.

ثم ضرب للدنيا مثلًا بغيث نزل على الأرض، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وأعجب نباته الكفار، الذين قصروا همهم ونظرهم إلى الدنيا فجاءها من أمر الله ما أتلفها فهاجت ويبست، فعادت على حالها الأولى، كأنه لم ينبت فيها خضراء، ولا رؤي لها مرأى أنيق، كذلك الدنيا، بينما هي زاهية لصاحبها زاهرة، مهما أراد من مطالبها حصل، ومهما توجه لأمر من أمورها وجد أبوابه مفتحة، إذا أصابها القدر بما أذهبها من يده، وأزال

تسلطه عليها، أو ذهب به عنها، فرحل منها صفر اليدين، لم يتزود منها سوى الكفن، فتبًّا لمن أضحت هي غاية أمنيته ولها عمله وسعيه.

وأما العمل للآخرة فهو الذي ينفع، ويدخر لصاحبه، ويصحب العبد على الأبد، ولهذا قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾ [الحديد: ٢٠] أي: حال الآخرة، ما يخلو من هذين الأمرين: إما العذاب الشديد في نار جهنم، وأغلالها وسلاسلها وأهوالها لمن كانت الدنيا هي غايته ومنتهى مطلبه، فتجرأ على معاصي الله، وكذب بآيات الله، وكفر بأنعم الله.

وإما مغفرة من الله للسيئات، وإزالة للعقوبات، ورضوان من الله، يحل من أحله به دار الرضوان لمن عرف الدنيا، وسعى للآخرة سعيها.

فهذا كله مما يدعو إلى الزهد في الدنيا، والرغبة في الآخرة، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، أي: إلا متاع يتمتع به وينتفع به، ويستدفع به الحاجات، لا يغتر به ويطمئن إليه، إلا أهل العقول الضعيفة الذين يغرهم بالله الغرور)[1].

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦].

---

(١) تفسير السعدي ص٨٤١.

يقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عن هذه الآية:

(هذا تزهيد منه لعباده في الحياة الدنيا بإخبارهم عن حقيقة أمرها، بأنها لعب ولهو، لعب في الأبدان، ولهو في القلوب، فلا يزال العبد لاهيًا في ماله، وأولاده، وزينته، ولذاته من النساء، والمآكل والمشارب، والمساكن والمجالس، والمناظر والرياسات، لاعبًا في كل عمل لا فائدة فيه، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصي، حتى تستكمل دنياه، ويحضره أجله، فإذا هذه الأمور قد ولت وفارقت، ولم يحصل العبد منها على طائل، بل قد تبين له خسرانه وحرمانه، وحضر عذابه، فهذا موجب للعاقل الزهد فيها وعدم الرغبة فيها، والاهتمام بشأنها، وإنما الذي ينبغي أن يهتم به ما ذكره بقوله: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [محمد: ٣٦]، بأن تؤمنوا بالله، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتقوموا بتقواه التي هي من لوازم الإيمان ومقتضياته، وهي العمل بمرضاته على الدوام، مع ترك معاصيه، فهذا الذي ينفع العبد، وهو الذي ينبغي أن يتنافس فيه، وتبذل الهمم والأعمال في طلبه، وهو مقصود الله من عباده رحمة بهم ولطفًا، ليثيبهم الثواب الجزيل)[1].

الآية الثالثة:

قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]:

(١) تفسير السعدي ص٧٩٠.

يقول ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية: (يقول تعالى مخبرًا عن حقارة الدنيا وزوالها وانقضائها، وأنها لا دوام لها، غاية ما فيها لهو ولعب ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾، أي: الحياة الدائمة الحق الذي لا زوال لها ولا انقضاء، بل هي مستمرة أبد الآباد، وقوله ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾، أي: لآثاروا ما يبقى على ما يفنى)[1].

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله تعالى عند هذه الآية:

(يخبر تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك، التزهيد في الدنيا والتشويق للأخرى، فقال: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ تلهو بها القلوب، وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلة الباطلة، ثم تزول سريعًا، وتنقضي جميعًا، ولم يحصل منها محبها إلا الندم والحسرة والخسران.

وأما الدار الآخرة، فإنها دار ﴿ٱلْحَيَوَانُ﴾ أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها، أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوى خلقت للحياة، وأن يكون موجودًا فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم بها اللذات، من مفرحات القلوب،

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٢٩٤ ط دار طيبة.

وشهوات الأبدان، من المآكل والمشارب، والمناكح، وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لما آثروا الدنيا على الآخرة، ولو كانوا يعقلون لما رغبوا عن دار الحيوان، ورغبوا في دار اللهو واللعب، فدل ذلك على أن الذين يعلمون، لا بد أن يؤثروا الآخرة على الدنيا، لما يعلمونه من حالة الدارين)[1].

الآية الرابعة:

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧].

يقول ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية:

وقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾، كقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) تفسير السعدي ١/ ١٣٥.

يقول تعالى: لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها وملاذ بيعها وربحها، عن ذكر ربهم الذي هو خالقهم ورازقهم، والذين يعلمون أن الذي عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق؛ ولهذا قال: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧] أي: يقدمون طاعته ومراده ومحبته على مرادهم ومحبتهم)[١].

الآية الخامسة:

قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١ - ٣].

قال صاحب الظلال رحمه الله تعالى عن هذه الآية:

(مطلع قوي يهز الغافلين هزًّا، والحساب يقترب وهم في غفلة، والآيات تعرض وهم معرضون عن الهدى، والموقف جد وهم لا يشعرون بالموقف وخطورته، وكلما جاءهم من القرآن جديد قابلوه باللهو والاستهتار، واستمعوه وهم هازلون يلعبون.. ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾.. والقلوب هي موضع التأمل والتدبر والتفكير.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ٦٨ ط دار طيبة.

إنها صورة للنفوس الفارغة التي لا تعرف الجد، فتلهو في أخطر المواقف، وتهزل في مواطن الجد؛ وتستهتر في مواقف القداسة، فالذكر الذي يأتيهم، يأتيهم ﴿مِّن رَّبِّهِم﴾ فيستقبلونه لاعبين، بلا وقار ولا تقديس، والنفس التي تفرغ من الجد والاحتفال والقداسة تنتهي إلى حالة من التفاهة والجدب والانحلال؛ فلا تصلح للنهوض بعبء، ولا الاضطلاع بواجب، والقيام بتكليف، وتغدو الحياة فيها عاطلة هينة رخيصة!

إن روح الاستهتار التي تلهو بالمقدسات روح مريضة، والاستهتار غير الاحتمال، فالاحتمال قوة جادة شاعرة، والاستهتار فقدان للشعور واسترخاء.

وهؤلاء الذين يصفهم القرآن الكريم يواجهون ما ينزل من القرآن ليكون دستورًا للحياة، ومنهاجًا للعمل، وقانونًا للتعامل.. باللعب.

ويواجهون اقتراب الحساب بالغفلة، وأمثال هؤلاء موجودون في كل زمان، فحيثما خلت الروح من الجد والاحتفال والقداسة صارت إلى هذه الصورة المريضة الشائهة التي يرسمها القرآن، والتي تحيل الحياة كلها إلى هزل فارغ، لا هدف له ولا قوام!

ذلك بينما كان المؤمنون يتلقون هذه السورة بالاهتمام الذي يذهل القلوب عن الدنيا وما فيها:

جاء في ترجمة الآمدي لعامر بن ربيعة أنه كان قد نزل به رجل من العرب فأكرم مثواه.

ثم جاءه هذا الرجل وقد أصاب أرضًا فقال له: إني استقطعت من رسول الله ﷺ واديًا في العرب. وقد أردت أن أقطع لك منه قطعة تكون لك ولعقبك من بعدك. فقال عامر: لا حاجة لي في قطيعتك، نزلت اليوم سورة أذهلتنا عن الدنيا: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]. وهذا هو فرق ما بين القلوب الحية المتلقية المتأثرة، والقلوب الميتة المغلقة الخامدة، التي تكفن ميتتها باللهو؛ وتواري خمودها بالاستهتار؛ ولا تتأثر بالذكر لأنها خاوية من مقومات الحياة)[1].

الآية السادسة:

قوله تعالى عن المكاثرين بالأموال والأولاد: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥].

ومثل هذه الآية قوله تعالى عن صاحب الجنتين في سورة الكهف: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ

(١) في ظلال القرآن: الآيات (١، ٢، ٣) من سورة الأنبياء.

جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ [الكهف: ٣٤ - ٣٦].

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى عن آية الكهف: (فقال: أي: صاحب الجنتين ﴿لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: ٣٤] أي: يجادله ويخاصمه، يفتخر عليه ويترأس: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] أي: أكثر خدمًا وحشمًا وولدًا.

قال قتادة: تلك والله أمنية الفاجر كثرة المال وعزة النفر)[١].

ويقدم سيد قطب رحمه الله تعالى لقصة صاحب الجنتين وصاحبه المؤمن بقوله: (ثم تجيء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلًا للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المغترة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين، نموذج الرجل الثري تذهله الثروة، وتبطره النعمة فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى.

فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه الذاكر لربه، يرى النعمة دليلًا على المنعم، موجبة لحمده وذكره)[٢].

---

(١) عمدة التفسير ٢/ ٤٧٥

(٢) في ظلال القرآن الآيات ٢٢- ٢٦من سورة الكهف.

الآية السابعة:

قولـه تعالى عن قيام السـاعة وحقيقة اللبـث في الدنيا: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عن هذه الآية:

(فهي مـن ضخامة الوقع في النفس بحيـث تتضاءل إلى جوارها الحيـاة الدنيا، وأعمارهـا، وأحداثهـا، ومتاعها، وأشـياؤها، فتبدو في حس أصحابها كأنها بعض يوم.. عشية أو ضحاها!

وتنطوي هـذه الحياة الدنيا التي يتقاتل عليها أهلها ويتطاحنون، والتي يؤثرونها ويدعون في سبيلها نصيبهم في الآخرة، والتي يرتكبون من أجلها ما يرتكبون من الجريمة والمعصية والطغيان، والتي يجرفهم الهـوى فيعيشـون لـه فيها.. تنطـوي هذه الحيـاة في نفـوس أصحابها أنفسهم، فإذا هي عندهم عشية أو ضحاها.

هذه هي: قصيرة عاجلة، هزيلة ذاهبة، زهيدة تافهة.. أفمن أجل عشـية أو ضحاها يضحون بالآخرة؟ ومن أجل شـهوة زائلة يدعون الجنة مثابة ومأوى!

ألا إنهـا الحماقـة الكبرى، الحماقة التي لا يرتكبها إنسـان، يسـمع ويرى!)[1].

(١) في ظلال القرآن الآية (٤٦) من سورة النازعات.

الآية الثامنة:

قولـه تعـالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ [الطور: ١١ - ١٢].

يعلق سيد قطب رحمه الله تعالى على هذه الآية فيقول:

(كذلـك يبدو أن الناس في خوض يلعبون مـن ناحية اهتماماتهم في الحيـاة، حـين تقاس بالاهتمامـات التي يثيرها الإسـلام في النفس، ويعلـق بها القلـب، ويشـغله بتدبيرهـا وتحقيقها، وتبـدو تفاهة تلك الاهتمامات وضآلتها، والمسلم ينظر إلى اشتغال أهلها بها، وانغماسهم فيها، وتعظيمهم لها،وحديثهم عنها، وكأنها أمور كونية عظمى! وهو ينظر إليهم كما ينظر إلى الأطفال المشغولين بعرائس الحلوى وبالدمى الميتة، يحسبونها شخوصًا؛ ويقضون أوقاتهم في مناغاتها واللعب معها وبها!!!)[1].

ذكر بعض الفوائد والدروس المستنبطة من سورة التكاثر، وما ورد في معناها

• **أولًا**: المعنى المستفاد من قوله تعالى ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾

الإلهـاء: هـو الـصرف إلى اللهو من (لهـا) إذا غفـل، وكل شيء شـغلك عـن شيء فقـد ألهـاك، وهـو صرف الهـم بما لا يحسـن أن

(١) المصدر نفسه عند الآيتين (١١، ١٢) من سورة الطور.

يصرف به من الإعراض عن الحق والانشغال بالمتع العاجلة عن الدار الباقية، والميل عن الجد إلى الهزل، وبالجملة: فكل باطل شغل عن الخير وعما يعني فهو (لهو)[١].

وقوله ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أبلغ في الذم مما لو قال: (شغلكم) لعدم التلازم بين اللهو والاشتغال؛ ذلك أن الإنسان قد يشتغل بالشيء بجوارحه وقلبه غير لاه به؛ بينما اللهو: ذهول وإعراض[٢].

• **ثانيًا**: قرن الله ﷻ في كتابه الكريم بين (اللهو واللعب)، وقد مر بنا بعضها، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [محمد: ٣٦].

وقوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ﴾ [الحديد: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأعراف: ٥١].

---

(١) انظر المفردات للراغب (مادة لهو) ص٧٤٨.

(٢) تفسير القرطبي ٦/ ٤١٤، الفوائد لابن القيم ص٣٢.

والعطف يقتضي المغايرة فما هو الفرق بين اللعب واللهو؟

ذكر أهل العلم فروقًا في ذلك: فقال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: (اللهو للقلب واللعب للجوارح)[١].

وقال بعضهم: اللهو: صرف الهم بما لا يحسن أن يصرف به، واللعب: طلب الفرح بما لا يحسن أن يطلب به.

وقيل: اللهو: الإعراض عن الحق، واللعب: الإقبال على الباطل.

وقال العسكري: (الفرق بين اللهو واللعب: أنه لا لهو إلا لعب، وقد يكون لعب ليس بلهو؛ لأن اللعب يكون للتأديب... ولا يقال لذلك لهو، وإنما اللهو لعب لا يعقب نفعًا، وسمي لهوًا؛ لأنه يشغل عما يعني، من قولهم: ألهاني الشيء، أي: شغلني، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ ا. هـ[٢].

ومن تأمل هذه الأقوال تبين له مدى التقارب بين معنى اللهو واللعب، ولعل من أحسن الفروقات بينهما ما ذكره الحافظ شمس الدين ابن القيم رحمه الله من أن اللهو للقلب، واللعب للجوارح، قال: (ولهذا يجمع بينهما) ا. هـ[٣].

---

(١) الفوائد ص٣٢.
(٢) الفروق اللغوية للعسكري ص٢١٠ .
(٣) الفوائد ص٣٢.

• **ثالثًا**: التكاثر: التباهي بالكثرة من المال والجاه والولد وغير ذلك مما سيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى، فهو تفاعل من الكثرة، وهو مأخوذ من مادة (ك ث ر) التي تدل على خلاف القلة، والتكاثر يقع على أحد وجهين: فيحتمل أن يكون التكاثر بمعنى المفاعلة لأنه يتم بين اثنين، يقول كل واحد منهما لصاحبه ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا﴾ [الكهف: ٣٤]، ويحتمل تكلف الكثرة وتطلبها، فإن الحريص مثلًا يتكلف جميع عمره تكثير ماله(١).

• **رابعًا**: لم يعين - سبحانه وتعالى - المكاثر به، بل ترك ذكره لإرادة العموم في كل ما يكاثر العبد به غيره سوى طاعة الله ﷻ، وترك الأمر على العموم والإطلاق أبلغ في الذم من تخصيصه، لأنه تذهب فيه الفكر كل مذهب، فيدخل فيه جميع ما يحتمله المقام، مما يتكاثر به المتكاثرون، ويفتخر به المفتخرون.

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (التكاثر في كل شيء: فكل من شغله وألهاه التكاثر بأمر من الأمور عن الله والدار الآخرة فهو داخل في حكم هذه الآية؛ فمن الناس من يلهيه التكاثر بالمال أو بالجاه، ومنهم من يلهيه التكاثر بالعلم، فيجمع العلم تكاثرًا أو تفاخرًا، وهذا أسوأ حالًا عند الله ممن يكاثر بالمال أو الجاه؛ فإنه جعل

(١) انظر التفسير الكبير ٣٢/ ٧٥ والفوائد ص٣٢.

أسباب الآخرة للدنيا، وصاحب المال والجاه استعمل أسباب الدنيا لها وكاثر بأسبابها)[١].

وسيأتي إن شاء الله تعالى بيانٌ لأنواع كثيرة من التكاثر التي ظهرت في واقعنا المعاصر.

- **خامسًا**: بما مضى يتبين أن الذم في الآية واقع على التكاثر في متاع الدنيا الزائل ولذاتها الفانية.

أما التكاثر بأسباب السعادة الأخروية فهو مطلوب شرعًا قال الله ﷻ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وعليه فالتكاثر من حيث تعلق الذم والحمد قسمان (محمود ومذموم)، فما كان في الآخرة فهو ممدوح إذا ابتغى به وجه الله تعالى، وما كان في الدنيا فهو مذموم ونهايته إلى الخسران.

- **سادسًا**: في سورة التكاثر دليل على البعث بعد الموت، وذلك من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ لأن الزائر لا يقيم وإنما يرجع إلى موطنه الأصلي النهائي، وذلك في اليوم الآخر: إما إلى الجنة وإما إلى النار. نسأل الله ﷻ أن يجعل قرارنا في جنات النعيم.

---

(١) عدة الصابرين ص١٧٢.

• **سابعًا**: في هذه السورة فضيلة لزيارة القبور وتذكر الموت والدار الآخرة والاستعداد له ما دام الإنسان حيًّا قبل أن يزورها ميتًا، وأن هذا من الأسباب التي تتقى بها الدنيا والتكاثر فيها.

• **ثامنًا**: تضمنت السورة بيان خطورة التكاثر في الدنيا وما يورث فيها من الشقاء والهم والغم، وفي الآخرة من الحسرة والندامة ورؤية النار، وذلك بالانشغال في الدنيا عن العمل الصالح بالمكاثرة ولو بالمعاصي والحرام.

• **تاسعًا**: بينت السورة أن التكاثر والمنافسة في الدنيا هي من أهم الأسباب التي تجعل الإنسان لا يبالى من أين يكسب المال وفيما ينفقه، فحسبه أن يتمتع بهذا المال حلالًا كان أو حرامًا، وينسى أن الله ﷻ سيسأله عن كل نعيم تنعم به في هذه الدنيا، لما قال سبحانه وتعالى ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ وقوله ﷺ: «**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه. وعن جسمه فيما أبلاه**»[1] فالمال والتكاثر به: إما حساب إن كان حلالاً، وإما عذاب إذا كان حرامًا.

(١) الترمذي (٢٤١٧) وقال حسن صحيح.

الفصل الثاني

ذكر بعض الأحاديث النبوية والآثار السلفية التي تحذر من الدنيا والتكاثر فيها

أولًا: الأحاديث

الحديث الأول:

عن عباس بن سهل بن سعد قال سمعت ابن الزبير على المنبر بمكة في خطبته يقول: يا أيها الناس إن النبي ﷺ كان يقول: «**لو أن ابن آدم أعطي واديًا ملئًا من ذهب أحب إليه ثانيًا، ولو أعطي ثانيًا أحب إليه ثالثًا، ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب**»(١). وفي رواية أخرى «**ولن يملأ فاه إلا التراب**»(٢).

قال ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كشف المشكل من حديث (الصحيحين) معلقًا على هذا الحديث:

(اعلم أن آثر الأشياء عند الإنسان نفسه، فأحب الأشياء إليه بقاؤها، ولشدة حبه البقاء لا ينقطع أمله من الحياة، ولو عاين الموت. فلما كان المال سببًا للحياة أحب سبب البقاء والاستكثار منه؛ لحبه

(١) البخاري (٦٤٣٨) ط. طوق النجاة، مسلم (١٠٤٨).
(٢) البخارى (٦٤٣٩).

البقاء. وقوله: (ولن يملأ فاه إلا التراب) الإشارة بالمعنى إلى حرصه، وبالصورة إلى دفنه في القبر)[١].

وقال ابن بطال رحمه الله تعالى:

(وقد أخبر الله تعالى عن الأموال والأولاد أنها فتنة، وقال تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، وخرج لفظ الخطاب على العموم؛ لأن الله تعالى فطر العباد على حب المال والولد، ألا ترى قوله ﷺ: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثًا**». فأخبر عن حرص العباد على الزيادة في المال، وأنه لا غاية له يقنع بها ويقتصر عليها، ثم أتبع ذلك بقوله: «**ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب**»، يعني إذا مات وصار في قبره ملأ جوفه بالتراب، وأغناه بذلك عن تراب غيره حتى يصير رميمًا. وأشار ﷺ بهذا المثل إلى ذم الحرص على الدنيا والشره على الازدياد منها؛ ولذلك آثر أكثر السلف التقلل من الدنيا والقناعة والكفاف فرارًا من التعرض لما لا يعلم كيف النجاة من شر فتنته، واستعاذ النبي ﷺ من شر فتنة الغنى، وقد علم كل مؤمن أن الله تعالى قد أعاذه من شر كل فتنة، وإنما دعاؤه بذلك ﷺ تواضعًا لله وتعليمًا لأمته، وحضًّا لهم على إيثار الزهد في الدنيا)[٢].

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين ١/ ٣٥٥.

(٢) شرح ابن بطال على صحيح البخاري ١٠/ ١٦٠.

الحديث الثاني:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أكثر ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض**»، قيل: وما بركات الأرض؟ قال: «**زهرة الدنيا**»، فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي ﷺ حتى ظننا أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه، فقال ﷺ: «**أين السائل؟**» قال: أنا قال: أبو سعيد لقد حمدناه حين طلع ذلك، قال ﷺ: «**لا يأتي الخير إلا بالخير، إن هذا المال خضرة حلوة، وإن كل ما أنبت الربيع يقتل حبطًا، أو يلم إلا آكلة الخضرة، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت الشمس فاجترت، وثلطت وبالت ثم عادت فأكلت، وإن هذا المال حلوة. من أخذه بحقه، ووضعه في حقه، فنعم المعونة هو. ومن أخذه بغير حقه كان كالذي يأكل ولا يشبع**»[1].

يعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على هذا الحديث الشريف فيقول:

(فأخبر ﷺ أنه إنما يخاف عليهم الدنيا، وسماها زهرة، فشبهها بالزهر في طيب رائحته وحسن منظره وقلة بقائه، وأن وراءه ثمرًا خيرًا وأبقى منه.

---

(١) البخاري (٦٤٢٧)، مسلم (١٠٥٢).

وقوله ﷺ: «**إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطًا أو يلم**» هذا من أحسن التمثيل المتضمن للتحذير من الدنيا والانهماك عليها والمسرة فيها، وذلك أن الماشية يروقها نبت الربيع؛ فتأكل منه بأعينها، فربما هلكت حبطًا. و(الحبط) انتفاخ بطن الدابة من الامتلاء أو المرض، يقال: حبط الرجل والدابة تحبطًا حبطًا إذا أصابه ذلك. ولما أصاب الحارث بن مازن بن عمرو بن تميم ذلك في سفره فمات حبطًا؛ فنسب الحبطي؛ كما يقال: السُّلَمي، فكذلك الشره في المال يقتله شرهه وحرصه، فإن لم يقتله قارب أن يقتله، وهو قوله ﷺ: «**أو يلم**»، وكثير من أرباب الأموال إنما قتلتهم أموالهم فإنهم شرهوا في جمعها، واحتاج إليها غيرهم فلم يصلوا إليها إلا بقتلهم، أو ما يقاربه من إذلالهم وقهرهم.

وقوله ﷺ: «**إلا آكلة الخضر**» هذا تمثيل لمن أخذ من الدنيا حاجته مثله بالشاة الآكلة من الخضر بقدر حاجتها، أكلت حتى إذا امتلئت خاصرتاها، وفي لفظ آخر «امتدت خاصرتاها»، وإنما تمتد من امتلائها من الطعام، وثنى الخاصرتين؛ لأنهما جانبا البطن.

وفي قوله ﷺ: «**استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت**» ثلاث فوائد:

- **إحداها**: أنها لما أخذت حاجتها من المرعى تركته وبركت مستقبلة الشمس، لتستمرئ بذلك ما أكلته.

- **الثانيـة**: أنها أعرضت عما يضرها من الشره في المرعى، وأقبلت على ما ينفعها من اسـتقبال الشمس، التي يحصل لها بحرارتها إنضاج ما أكلته وإخراجه.

- **الثالثة**: أنها استفرغت بالبول والثلط ما جمعته من المرعى في بطنها، فاسـتراحت بإخراجه، ولو بقـي فيها لقتلها، فكذلـك جامع المال مصلحته أن يفعل به كما فعلت هذه الشاة.

وأولُ الحديـث مثـلٌ للشره في جمـع الدنيا الحريص عـلى تحصيلها؛ فمثالـه: مثال الدابـة التي حملها شره الأكل عـلى أن يقتلها حبطًا أو يلم إذا لم يقتلهـا، فإن الـشره الحريص إما هالك وإما قريب من الهلاك، فإن الربيـع ينبت أنواع البقول والعشـب؛ فتسـتكثر منه الدابـة حتى ينتفخ بطنهـا لما جاوزت حد الاحتمال؛ فتنشـق أمعاؤها وتهلك، كذلك الذي يجمـع الدنيـا من غـير حلها، ويحبسـها أو يصرفها في غـير حقها. وآخر الحديـث مثـل للمقتصـد بآكلـة الخضر الـذي تنتفـع الدابـة بأكله، ولم يحملها شرهها وحرصها على تناولها منه فوق ما تحتمله، بل أكلت بقدر حاجتهـا، وهكذا هذا أخذ ما يحتاج إليه ثم أقبل على ما ينفعه. وضرب بـول الدابـة؛ وثلطها مثـلًا لإخراجه المـال في حقه حيث يكون حبسـه وإمسـاكه مـضرًا به، فنجا من وبـال جمعه بأخذ قدر حاجتـه منه، ونجا من وبال إمساكه بإخراجه؛ كما نجت الدابة من الهلاك بالبول والثلط.

وفي هذا الحديث إشارة إلى الاعتدال والتوسط بين الشره في المرعى القاتل بكثرته، وبين الإعراض عنه وتركه بالكلية؛ فتهلك جوعًا.

وتضمن الخبر أيضًا إرشاد المكثر من المال إلى ما يحفظ عليه قوته وصحته في بدنه وقلبه، وهو الإخراج منه وإنفاقه، ولا يحبسه؛ فيضر حبسه، وبالله التوفيق)[١].

الحديث الثالث:

عن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «**يقول ابن آدم: مالي مالي. قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت**»[٢].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول العبد: مالي، مالي. إنما له من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى. وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس**»[٣].

قال في حاشية السندي على النسائي:

---

(١) عدة الصابرين ص٣٦٦- ٣٦٨ ت: سليم الهلالي.
(٢) مسلم (٢٩٥٨).
(٣) مسلم (٢٩٥٩).

(يقول ابن آدم: مالي. كأنه أفاد بهذا التفسير أن المراد التكاثر في الأموال، وإنما مالك يا ابن آدم، إنكار منه ﷺ على ابن آدم بأن ماله هو ما انتفع به في الدنيا بالأكل أو اللبس أو في الآخرة بالتصدق. وأشار بقوله فأفنيت فأبليت. إلى أن ما أكل أو لبس فهو قليل الجدوى، لا يرجع إلى عاقبة. وقوله: أو تصدقت فأمضيت. أي أردت التصدق فأمضيت. أو تصدقت فقدمت لآخرتك)[1].

وقال في تحفة الأحوذي عند شرح هذا الحديث:

(قوله: «**يقول ابن آدم: مالي مالي**»: أي: يغتر بنسبة المال إليه تارة، ويفتخر به أخرى «**وهل لك من مالك**» أي: هل يحصل لك من المال وينفعك في المال «**إلا ما تصدقت فأمضيت**» أي: فأمضيته وأبقيته لنفسك يوم الجزاء. قال تعالى: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦]، وقال ﷻ: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ [الحديد: ١١]. «**أو أكلت**» أي: استعملت من جنس المأكولات والمشروبات، ففيه تغليب أو اكتفاء «**فأفنيت**»، أي: فأعدمتها. «**أو لبست**» من الثياب «**فأبليت**» أي: فأخلقتها)[2].

---

(١) حاشية السندي على النسائي ٦/ ٢٣٨.
(٢) تحفة الأحوذي ٧/ ٥.

الحديث الرابع:

عن عروة بن الزبير أن المسور بن مخرمة رضي الله عنه أخبره أن عمرو بن عوف، وهو حليف بني عامر بن لؤي، وكان شهد بدرًا مع رسول الله ﷺ أخبره أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، وكان رسول الله ﷺ هو صالح أهل البحرين، وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة، فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ، فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «**أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟**» فقالوا: أجل يا رسول الله قال: «**فأبشروا، وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها، كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم**»[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في فتح الباري عند هذا الحديث:

(وقال الطيبي: فائدة تقديم المفعول هنا الاهتمام بشأن الفقر، فإن الوالد المشفق إذا حضره الموت كان اهتمامه بحال ولده في المال،

---

(١) البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).

فأعلم ﷺ أصحابه أنه وإن كان لهم في الشفقة عليهم كالأب، لكن حاله في أمر المال يخالف حال الوالد، وأنه لا يخشى عليهم الفقر كما يخشاه الوالد، ولكن يخشى عليهم من الغنى، الذي هو مطلوب الوالد لولده.

والمراد بالفقر العهدي، وهو ما كان عليه الصحابة من قلة الشيء، ويحتمل الجنس، والأول أولى، ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى أن مضرة الفقر دون مضرة الغنى؛ لأن مضرة الفقر دنيوية غالبًا، ومضرة الغنى دينية غالبًا.

قوله ﷺ: «**فتنافسوها..**» والتنافس من المنافسة، وهي الرغبة في الشيء ومحبة الانفراد به والمغالبة عليه، وأصلها من الشيء النفيس في نوعه.. ونفس الشيء بالضم نفاسة صار مرغوبًا...

قوله «**فتهلككم**» أي؛ لأن المال مرغوب فيه، فترتاح النفس لطلبه، فتمنع منه، فتقع العداوة المفضية للمقاتلة، المفضية إلى الهلاك.

قال ابن بطال: (فيه أن زهرة الدنيا ينبغي لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها وشر فتنتها، فلا يطمئن إلى زخرفها، ولا ينافس غيره فيها)[1].

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٤٥.

الحديث الخامس:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلا من أعطاه الله خيرًا، فنفخ فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيرًا**»(١).

وفي رواية عند الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**المكثرون هم الأسفلون، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا هكذا وهكذا. أمامه، وعن يمينه، وعن شماله، وخلفه**»(٢).

قال ابن حجر رحمه الله تعالى في شرحه لحديث أبي ذر رضي الله عنه: (والمراد الإكثار من المال والإقلال من ثواب الآخرة، وهذا في حق من كان مكثرًا، ولم يتصف بما دل عليه الاستثناء بعده من الإنفاق)(٣).

الحديث السادس:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان ويبقى واحد. يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله**»(٤).

---

(١) البخاري (٦٤٤٣)، مسلم (٩٤).
(٢) مسند أحمد (٩٥٢٦).
(٣) فتح الباري ١١/ ٢٦٦.
(٤) البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).

الحديث السابع:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة. ومن كانت الدنيا همه، جعل الله فقره بين عينيه، ومزق عليه شمله، ولم تأته من الدنيا إلا ما قدر له**»(١).

قال في تحفة الأحوذي في شرحه لهذا الحديث:

(قوله: «**من كانت الآخرة**» بالرفع على أنه اسم كانت (همه) بالنصب على أنه خبر كانت، أي قصده ونيته. وفي المشكاة: من كانت نيته طلب الآخرة «**جعل الله غناه في قلبه**»، أي جعله قانعًا بالكفاف والكفاية، كيلا يتعب في طلب الزيادة. «**وجمع له شمله**» أي: أموره المتفرقة، بأن جعله مجموع الخواطر. بتهيئة أسبابه، من حيث لا يشعر بهن. «**وأتته الدنيا**» أي: ما قدر وقسم له منها، «**وهي راغمة**» أي: ذليلة حقيرة تابعة له، لا يحتاج في طلبها إلى سعي كثير، بل تأتيه هينة لينة على رغم أنفها وأنف أربابها. «**ومن كانت الدنيا همه**»، وفي المشكاة: ومن كانت نيته طلب الدنيا. «**جعل الله فقره بين عينيه**»، أي جنس الاحتياج إلى الخلق كالأمر المحسوس منصوبًا بين عينيه «**وفرق عليه شمله**»، أي أموره المجتمعة. فقال الطيبي: يقال جمع الله

---

(١) الترمذي (٨٤٧٢) وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٦٧٠.

شمله أي ما تشتت من أمره، وفرَّق الله شمله أي ما اجتمع من أمره، فهو من الأضداد. «**ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**» أي وهو راغم، فلا يأتين ما يطلب من الزيادة على رغم أنفه وأنف أصحابه)[١].

الحديث الثامن:

عن عبدالله بن عمر ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، وقال: «**كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل**». وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[٢].

قال ابن بطال رحمه الله تعالى في شرحه لهذا الحديث:

(قال أبو الزناد: معنى هذا الحديث الحض على قلة المخالطة وقلة الاقتناء والزهد في الدنيا، بيان ذلك أن الغريب قليل الانبساط إلى الناس، بل هو مستوحش منهم، إذ لا يكاد يمر بمن يعرفه فيأنس به ويستكثر بخلطته، بل هو ذليل في نفسه خائف.

وكذلك عابر السبيل لا ينفذ في سفره إلا بقوته وخفته من الأثقال، غير متشبث بما يمنعه من قطع سفره، معه زاد وراحلة يبلغانه إلى بغيته من قصده.

---

(١) تحفة الأحوذي ٧/ ١٣٩، ١٤٠.
(٢) صحيح البخاري (٦٤١٦).

وهذا يدل على إيثار الزهد في الدنيا وأخذ البلغة منها والكفاف، فكما لا يحتاج المسافر أكثر مما يبلغه إلى غاية سفره، فكذلك لا يحتاج المؤمن في الدنيا إلى أكثر مما يبلغه المحل.

وقوله: «**إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء**»، حض منه على أن يجعل الموت نصب عينيه، فيستعد له بالعمل الصالح، وحض له على تقصير الأمل وترك الميل إلى غرور الدنيا. وقوله «**خذ من صحتك لمرضك**» حض له على اغتنام صحته فيمهد فيها لنفسه، خوفًا من حلول مرض به يمنعه من العمل. وكذلك قوله: «**ومن حياتك لموتك**» تنبيه على اغتنام أيام حياته، ولا يمر عمره باطلًا في سهو وغفلة، لأن من مات فقد انقطع عمله، وفاته أمله، وحضره على تفريطه ندمه، فما أجمع هذا الحديث لمعاني الخير وأشرفه)[1].

الحديث التاسع:

عن عبدالله بن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات، فإنه ما كان في كثيرٍ إلا قلله، ولا قليلٍ إلا جزأه**»[2].

وفي رواية عن أبي هريرة ﷺ: «**أكثروا ذكر هاذم اللذات، فما ذكره عبد قط وهو في ضيق إلا وسَّعه، ولا ذكره في سعة إلا ضيَّقه عليه**»[3].

---

(١) شرح ابن بطال لصحيح البخاري ١٠/ ١٤٩.

(٢) الطبراني في الأوسط ٦/ ٥٦ (٥٧٨٠) وقال الهيثمي: إسناده حسن ١٠/ ٣٠٩.

(٣) صحيح ابن حبان ٧/ ٢٦٠ والبيهقي في الشعب ٧/ ٣٥٤. وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده حسن.

الحديث العاشر:

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «دخلت على رسول الله ﷺ، وقد نام على رمال حصير وقد أثر في جنبه، فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً، تجعله بينك وبين الحصير يقيك منه؟ فقال: **ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها**»(١).

ويعلق الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى على هذا الحديث فيقول:

(فتأمل حسن هذا المثال ومطابقته للواقع سواء؛ فإنها في خضرتها كشجرة، وفي سرعة انقضائها وقبضها شيئًا فشيئًا كالظل، والعبد مسافر إلى ربه، والمسافر إذا رأى شجرة في يوم صائف لا يحسن به أن يبني تحتها دارًا ولا يتخذها قرارًا، بل يستظل بها بقدر الحاجة، ومتى زاد على ذلك انقطع عن الرفاق)(٢).

الحديث الحادي عشر:

عن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «**والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه**» وأشار يحيى بالسبابة «**في اليم، فلينظر بم يرجع**»(٣).

---

(١) الترمذي (٢٦٠٤)، ابن ماجة (٩١٠٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٦٦٩).
(٢) عده الصابرين ص١٩٦-١٩٧ تحقيق: زكريا علي يوسف.
(٣) رواه مسلم (٢٨٥٨)

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى عند هذا الحديث:

(وهـذا أيضًا من أحسـن الأمثال؛ فإن الدنيا منقطعـة فانية، ولو كانـت مدتهـا أكثـر مما هـي والآخـرة أبدية لا انقطـاع لها، ولا نسـبة للمحصـور إلى غير المحصـور، بل لو فرض أن السـماوات والأرض مملوءتان خردلًا، وبعد كل ألف سـنة طائر ينقل خردلة لفني الخردل والآخـرة لا تفنى، فنسـبة الدنيا إلى الآخرة في التمثيل كنسـبة خردلة واحدة إلى ذلك الخردل)[1].

الحديث الثاني عشر:

عـن عبدالله بن عمـر رضي الله عنهما قال: قال رسـول الله ﷺ: «**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه**»[2].

الحديث الثالث عشر:

عن الضحاك بن مزاحم عن الأسود قال عبدالله: لو أن أهل العلم صانـوا علمهم ووضعوه عند أهله، لسـادوا به أهل زمانهم، ولكنهم بذلـوه لأهل الدنيا، لينالوا به من دنياهم، فهانوا على أهلها. سـمعت

(١) عدة الصابرين، ص١٩٧.
(٢) رواه مسلم (١٠٥٤).

نبيكم ﷺ يقول: «**من جعل الهموم همًّا واحدًا كفاه الله هم آخرته، ومن تشعبت به الهموم وأحوال الدنيا، لم يبال الله في أي أوديتها وقع**»(١).

الحديث الرابع عشر:

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»(٢) والمعنى أن الحرص على المال والشرف أكثر إفسادًا للدين من إفساد الذئبين الجائعين للغنم، وللتوسع في شرح الحديث يحسن الرجوع إلى رسالة (شرح حديث «**ما ذئبان جائعان**» لابن رجب رحمه الله تعالى).

الحديث الخامس عشر:

عن كعب بن عياض رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي في المال**»(٣).

الحديث السادس عشر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**تعس عبدالدينار وعبدالدرهم وعبدالخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط،**

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٤٥٤).
(٢) الترمذي (٢٣٧٦)، مسند أحمد (١٥٧٨٤).
(٣) الترمذي (٢٣٣٦) وقال حسن صحيح.

وتعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»[١].

ثانيًا: الآثار الواردة عن السلف في زهدهم وحذرهم من الدنيا والتكاثر فيها

ومن ذلك:

- عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قدم عمر الشام فتلقاه عظماء أهل الأرض وأمراء الأجناد، فقال عمر: أين أخي؟ قالوا: من؟ قال: أبو عبيدة. قالوا: أتاك الآن، قال: فجاء على ناقة مخطومة بحبل، فسلم عليه وساءله، ثم قال للناس: انصرفوا عنا. قال: فسار معه حتى أتى منزله فنزل عليه، فلم ير في بيته إلا سيفه وترسه ورحله، فقال له عمر: لو اتخذت متاعًا -أو قال شيئًا- فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين إن هذا سيبلغنا المقيل)[٢].

---

(١) البخاري (٢٨٨٧).

(٢) مصنف عبدالرزاق ١١/ ٣١١.

• عن الحسن رحمه الله تعالى يقول: (بكى سلمان رضي الله عنه عند موته، فقيل له: ما يبكيك يا أبا عبدالله؟! قال: عهد إلينا النبي ﷺ عهدًا، وقال: «**إنما يكفي أحدكم في الدنيا مثل زاد الراكب**». فأنا أخشى أن أكون قد فرطت)[١].

• بوب البخاري رحمه الله تعالى فقال: (باب قول النبي ﷺ «**إن هذا المال خضرة حلوة**» وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ [آل عمران: ١٤]، ثم ذكر أثرًا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث قال: (اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه)[٢].

• وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: «إنما أهلك من كان قبلكم هذا الدينار والدرهم، وهما مهلكاكم»[٣].

• عن الأوزاعي عن بلال بن سعد: أن أبا الدرداء رضي الله عنه قال: «أعوذ بالله من تفرقة القلب، قيل: وما تفرقة القلب؟ قال: أن يجعل لي في كل واد مال»[٤].

---

(١) المصدر نفسه ١١/ ٣١٣.
(٢) البخاري. ك. الرقاق باب (إن هذا المال خضرة حلوة) ٨/ ٩٣.
(٣) صحَّح الألباني وقفه ورفعه إلى النبي ﷺ، انظر: السلسلة الصحيحة (١٧٠٣).
(٤) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٤٨.

• وعن أبي الدرداء رضي الله عنه كان يقول: «ويل لكل جماع فاغر فاه، كأنه مجنون يرى ما عند الناس، ولا يرى ما عنده، لو يستطيع لوصل الليل والنهار، ويله من حساب غليظ وعذاب شديد»[١].

• عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: «والله لئن كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما تركا هذا المال وهو يحل لهما شيء منه، لقد غُبنا ونقص رأيهما، وايم الله ما كانا بمغبونين ولا ناقصي الرأي، ولئن كانا امرأين يحرم عليهما من هذا المال الذي أصبنا بعدهما لقد هلكنا، وايم الله ما الوهم إلا من قبلنا»[٢].

• عن علي رضي الله عنه قال: «إنما أخاف عليكم اثنتين: طول الأمل واتباع الهوى. فإن طول الأمل ينسي الآخرة، وإن اتباع الهوى يبعد عن الحق، وإن الدنيا قد ترحلت مدبرة، وإن الآخرة مقبلة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، فإن اليوم عمل ولا حساب، وغدًا حساب ولا عمل»[٣].

• "عن ميمون بن مهران قال: قرأ عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ فبكى، ثم قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، ما أرى المقابر إلا زيارة، ولا بد لمن يزورها أن يرجع إلى الجنة أو إلى النار[٤].

(١) حلية الأولياء ١/ ٢١٧.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٥٧٩).
(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٦٣٦).
(٤) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا (٤٢١).

• قال نعيم بن حماد: قال رجل لابن المبارك: قرأت البارحة القرآن في ركعة. فقال: لكني أعرف رجلًا لم يزل البارحة يكرر ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلى الصبح، ما قدر أن يتجاوزها، يعني نفسه[١].

• وعن عوام بن سميع القرشي قال: كنت جار سعيد بن عبدالعزيز ما بيني وبينه إلا حائط، قال: فسمعته يردد ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ إلى الصباح ما قرأ غيرها[٢].

• وعن أبي بكر بن عياش قال: صليت خلف فضيل بن عياض المغرب، وابنه علي إلى جانبي، فقرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فلما قال: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ سقط عليٌّ مغشيًّا عليه، وبقي فضيل عند الآية. فقلت في نفسي: ويحك أما عندك من الخوف ما عند الفضيل وعلي! فلم أزل أنتظر عليًّا فما أفاق إلى ثلث من الليل بقي[٣].

• عن أحمد بن سهل قال: قدم علينا سعد بن زنبور، فأتيناه فحدثنا، فقال: كنا على باب الفضيل بن عياض، فاستأذنا عليه، فلم يؤذن لنا. قال: فقيل لنا: إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن. قال: وكان معنا رجل مؤدب وكان صيتًا. قال فقلنا له: اقرأ. قال: فقرأ:

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٨٠.
(٢) مختصر تاريخ دمشق ٦/ ١٦٢.
(٣) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٤٣.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفضيل، وقد بكى حتى بل لحيته بالدموع، ومعه خرقة ينشف بها الدموع من عينيه، وأنشأ يقول:

بلغت الثمانين أو جزته ... فماذا أؤمل أو أنتظر؟

أتى لي ثمانون من مولدي ... فبعد الثمانين ما ينتظر؟

علتني السنون فأبلينني ... .

قال: ثم خنقته العبرة، قال: وكان معنا علي بن خشرم فأتمه لنا، فقال:

.... فدقت عظامي وكَلَّ البصر[1].

- روى ابن عبدالبر بسنده عن حمزة الكناني يقول: خرجت حديثًا عن النبي ﷺ من نحو مئتي طريق، فداخلني لذلك من الفرح غير القليل، وأعجبت بذلك، فرأت يحيى بن معين في المنام، فقلت: يا أبا زكريا خرجت حديثًا من مئتي طريق. فسكت ساعة، ثم قال: أخشى أن تدخل هذه تحت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[2].
- قال المغيرة: خرجت ليلة بعد أن هجع الناس هجعة، فمررت بمالك بن أنس، فإذا به قائم يصلي، فلما فرغ من (الحمد لله) ابتدأ

(١) تاريخ دمشق ٤٨/ ٤٥١.
(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/ ١٨٠.

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ حتى بلغ ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾، فبكى بكاءً طويلًا، وجعل يرددها يبكي، وشغلني ما سمعت ورأيت منه عن حاجتي، التي خرجت إليها، فلم أزل قائمًا وهو يرددها ويبكي، حتى طلع الفجر، فلما تبين له ركع، فصرت إلى منزلي فتوضأت، ثم أتيت المسجد، فإذا به في مجلسه والناس حوله، فلما أصبح نظرت، فإذا وجهه قد علاه الحسن[1].

- عن عبدالواحد بن زيد قال: قال الحسن البصري: «المؤمن لم يأخذ دينه عن رأيه، ولكن أخذه من قبل ربه، وإن هذا الحق قد اجتهد أهله، ولا يصبر عليه إلا من عرف فضله ورجا عاقبته، فمن حمد الدنيا ذم الآخرة، وليس يكره لقاء الله إلا مقيمًا على سخطه. وكان إذا قرأ ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال: عن ماذا ألهاكم عن دار الخلود وجنة لا تبيد؟! هذا والله فضح القوم، وهتك الستر، وأبدى العوار، رحم الله رجلًا خلا بكتاب الله فعرضه على نفسه، فإن وافقه حمد ربه، وسأل الزيادة من فضله، وإن خالفه عاتب نفسه، وأناب ورجع من قريب، رحم الله رجلًا وعظ أخاه وأهله، فقال: يا أهلاه صلاتكم صلاتكم، زكاتكم زكاتكم، لعل الله يرحمكم، فإن الله أثنى على عبد من عباده، فقال: ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ١/ ٥٤.

عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيًّا ﴾ [مريم: ٥٥]، ابن آدم كيف تكون مسلمًا ولا يسلم منك جارك؟! وكيف تكون مؤمنًا ولم يأمنك الناس؟!)[١].

- قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: حدثنا سيار حدثنا جعفر قال: سمعت مالك بن دينار يقول: (اتقوا السحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء)[٢].

- وقال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله تعالى: (الدنيا خمر الشيطان، من سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى، نادمًا بين الخاسرين)[٣].

(١) المجالسة وجواهر العلم للدينوري المالكي ١/ ٣٩٢.
(٢) الزهد للإمام أحمد ص٣٨٧.
(٣) عدة الصابرين لابن القيم ص٣٤٩.

الفصل الثالث

ذكر بعض الأنواع والمجالات التي يتكاثر فيها الناس ولا سيما في زماننا اليوم

سبق بيان أن التكاثر في قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، تفاعل من الكثرة، أي مكاثـرة بعضكم لبعض، وهو أن يطلـب الرجل أن يكون أكثر من غيره، وقد أطلق الله سبحانه هذا التكاثر، ولم يعين في الآية ما يحصل التكاثر فيه، بل أعرض عن ذكره إرادة لإطلاقه وعمومه، ليدخل تحت المتكاثر به كل ما يكاثر به العبد غيره. وأن كل ما سوى طاعة الله ﷻ، وما يعود عليه نفعه يوم معاده هو داخل في هذا التكاثر، سواء كان ذلك في مال أو جاه أو رئاسة أو نسوة أو علم وحديث، وغير ذلك مما يراد به الدنيا، وهذ كله مذموم، إلا ما يقرب إلى الله ﷻ، فإن التكاثر فيه منافسة في الخيرات ومسابقة إليها، وهذا مرغب فيه، قال الله ﷻ عن نعيم الآخرة ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦][1].

وفي هذا الفصل سأذكر إن شاء الله تعالى بعض ما يتكاثر به الناس -وما أبرئ نفسي- ولا سـيما في واقعنا المعاصر الذي لم يشـهد تاريخ المسلمين تكاثرًا مثله في كمه وكيفيته، حتى أصبح سمة بارزة لزماننا، ولم يسلم منه أحد، إلا من رحم الله ﷻ، وقليل ما هم.

(١) انظر الفوائد لابن القيم ص٣٠- ٣١.

ومن أبرز هذه الأشياء التي يتكاثر بها الناس اليوم حتى أشغلتهم عن الموت الذي سيفجؤهم بغتة، ويزيرهم المقابر، ويحول بينهم وبين ما كانوا يتكاثرون فيه ما يلي:

أولًا: التكاثر في الأموال نقدًا وعينًا

قال الله ﷻ: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، وقد سبق تفسير هذه الآية في فصل سابق، والمقصود بيان أن من أبرز ما يتكاثر فيه الناس في القديم والحديث إنما هو في الأموال والأولاد والأنساب، حيث نجد التنافس المسعور على هذه الدنيا، وسعي كل إنسان أن يكون أكثر مالًا وخدمًا وأولادًا، قال تعالى: ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴾ [الكهف: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ [سبأ: ٣٥].

والمال قد يكون نقدًا، وقد يكون عينًا كالعقار والمساكن والأثاث والمراكب والمزارع، وإن المتأمل اليوم في واقعنا المعاصر، ليرى هذا التنافس المحموم بشكل جلي، عم الرجال والنساء والصغار والكبار، وأصبحنا نسمع ونرى من لا يقنع برصيده الكبير من المال، بل يسعى جاهدًا إلى مضاعفته، ليكون أكثر من غيره، كما يسعى إلى سكن

ومركب أرفه من غيره، مع أنه قد يعيش في سكن واسع وله مركب حسن.

وقد بلغت حمى هذا التكاثر إلى الرجل الفقير، فنراه يسعى لتحميل نفسه من القروض والديون ليكاثر غيره في مركب أو مسكن أو ملبس!! وقد يكون اقتراضه بالربا.

فما أخطر هذا البلاء الاجتماعي الذي أصبنا به، وذلك بالتوسع في الدنيا والتكاثر فيها ولو بالديون، ولو بالقروض المحرمة. وأذكر أن قابلت أحد الإخوان الذين يظهر عليهم سمت الاستقامة والتدين، فسألته عن أحواله فأخبر بأنه في حالة حسنة، فله دخل جيد وسكن وسيارة، وليس عليه ديون، ولكنه قال: إنه يسعى للحصول على قرض كبير، فقلت له: ما حاجتك إلى القروض؟ فأخبرني بأنه يريد المساهمة به في مشروع تجاري مربح، فتعجبت من صنيعه هذا، ونصحته بأن يحمد الله ﷻ على الكفاية وحسن الحال وعدم الديون، وأن يحذر من التكاثر في المال بتحميل نفسه من الديون بما هو في غنى عنه ولا حاجة له فيه، وقلت له: من يوفي عنك دينك إذا مت، ولا سيما أن لا حاجة لك في الدين، إلا مجرد التكاثر وزيادة رصيد أموالك.

وأمثال هذا الأخ كثير وكثير، ولا سيما بعد انتشار شركات الأسهم، والاكتتاب فيها والبيع والشراء فيها، نسأل الله العافية والسلامة.

وإن الناظر إلى مساكننا اليوم وما فيها من الترف والزخارف والإنفاق في جمالياتها وكمالياتها وكثرة منازلها وارتفاع بنيانها والتطاول فيها، ليرى مصداق قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، لأن أكبر دافع لذلك هو التنافس والتفاخر مع الآخرين ومسايرتهم.

قال في روح المعاني: (عن الحسن البصري رحمه الله تعالى قال: (كنت وأنا مراهق أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان رضي الله عنه، فأتناول سقفها بيدي، وهدمها عمر بن عبدالعزيز بعد موت أزواجه عليه السلام وأدخلها في المسجد. قال بعضهم: ما رأيت باكيًا أكثر من ذلك اليوم، وليتها تركت ولم تهدم حتى يقصر الناس عن البناء، ويرضون بما رضي الله لنبيه عليه السلام، ومفاتيح خزائن الأرض بيده عليه السلام. أي فإن ذلك مما يزهد في التكاثر والتفاخر في البنيان[1].

أما حين تأتي إلى الأثاث والترف فيها فحدث ولا حرج عن الانفاق الزائد في توفيرها، وكثير منها يمكن الاستغناء عنه، ولكنه التكاثر والتنافس في متاع الحياة الدنيا.

ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على حياتنا، ليظهر لنا ذلك الترف العظيم، والتنافس الخطير، والاستكثار المحموم فيها، لا للحاجة،

(١) روح المعاني ٤/ ٢١١.

ولكـن لمجرد الترف فيها. قـال في قوت القلوب (من الزهد أن يكون الشيء الواحد يستعمل في أشياء كثيرة، كذلك كانت سيرة السلف في الأثـاث وهو التقلل. كما أن أبناء الدنيا يستعملون للشيء الواحد أشياء كثيرة وهو وصف التكاثر، وذلك من أبواب الدنيا)[١].

ثانيًا: التكاثر في الأولاد والأنساب:

وهـذا أمـر مشـاهد لا يحتـاج إلى مزيـد تمعـن ونظـر، ولا سـيما الأنسـاب والتكاثر فيها والتفاخـر بها، وهذا مصداق قوله ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»[٢].

وقد سـبق في تفسير سورة التكاثر ذكر المعنى الآخر لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾، وذلـك أن التكاثـر بلـغ بالمشركـين إلى أن ذهبوا إلى المقابـر، وتكاثـروا، وتفاخروا بمـن فيها من الأمـوات من آبائهم وأجدادهـم المقبوريـن، وكانـت هـذه الحالـة معروفـة عندهـم ولهـا محكمون!!.

(١) قوت القلوب ١/ ٤٢٧.
(٢) مسلم (٩٣٤).

والتفاخر والتعاظم بالآباء والأجداد من أهم مظاهر الحياة الاجتماعية عند أهل الجاهلية، حيث كان بعضهم يفخر على بعض بالسيادة والشرف والكثرة والحسب والنسب، حتى إنهم ينطلقون في بعض الأحيان إلى القبور، ويشيرون إلى القبر بعد القبر ويقولون: فيكم مثل فلان ومثل فلان؟ وفي ذلك قال بعض المفسرين: إن في ذلك نزل قوله تعالى ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ ولكن سبب النزول هذا مرجوح.

ومثل هذا في واقعنا المعاصر ما تقوم به بعض القبائل من اجتماع سنوي لكل المنتسبين لهذه القبيلة أو تلك، ويكون فيه من المدائح والثناء على القبيلة ورموزها ووجهائها والتفاخر بذلك، ومثل ذلك أيضًا ما انتشر عن بعض العوائل بما يسمى بشجرة العائلة، وإن كان هذا في حد ذاته لا بأس به لو اقتصر على معرفة نسب العائلة والمنتسبين إليها من آباء وأجداد وأبناء وأحفاد، لكنه تجاوز ذلك إلى الافتخار بهذه الشجرة، والتعصب لها، وإبرازها في المجالس للزائرين والضيوف والتباهي بها، والتكاثر بالمنتسبين إليها، وتكاثر كل أب بما تحته من أولاد في هذه الشجرة. ومما له صلة بهذا تكاثر كثير من أبناء هذه القبيلة أو تلك بمواشيهم من الإبل والغنم، وذلك فيما يسمونه (مزايين الإبل والغنم)، حيث يتفاخرون بها، ويتكاثرون، ويغالون في أثمانها بمئات الألوف والملايين.

ثالثًا: التكاثر بالجاه والشهرة والرئاسات والشهادات والمناصب

وهـذا النوع مـن التكاثر يعد أخطـر على المرء مـن التكاثر بالمال والولـد، ولا سـيما إذا كان طلب الجاه والشـهرة بالعلـم والدين، كما جاء في حديث سـابق: «**ما ذئبان جائعان أُرسِـلا في غنم بأفسد لهما من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»(١).

يقـول الإمـام الزهري رحمه الله: (ما رأينا الزهـد في شيء أقل منه في الرئاسـة، وتـرى الرجل يزهد في المطعم والـشراب والمال، فإذا نوزع الرياسة حامى عليها وعادى)(٢).

«فكـما أن المـال: ملك الأعيان المنتفع بها، فـإن الجاه ملك القلوب المطلوب تعظيمها وطاعتها، والتصرف فيها من تحصيل المنزلة في قلوب الخلـق، وهـو اعتقاد القلوب نعتًا من نعوت الكمال في هذا الشـخص، إما من علم أو عبادة أو نسب أو منصب أو شهادات أو قوة أو إعانة أو حسن صورة أو غير ذلك، مما يعتقد الناس كمالًا؛ فبقدر ما يعتقدون له من ذلك تذعن قلوبهم لطاعته ومدحه وخدمته وتوقيره.

والحقيقـة أن هذا اللون من المكاثرة أشـد فتكًا وأعظم خطرًا من المكاثـرة بالأمـوال والأولاد، ممـا يدخل تحت النـوع الأول؛ ذلك أن

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سير أعلام النبلاء. ٧/ ٢٦٢.

أكثر الناس إنما هلكوا لخوف مذمة الناس وحب مدحهم؛ فصارت حركاتهم كلها على ما يوافق رضى الناس رجاء المدح وخوفًا من الذم؛ وذلك من المهلكات.

ولا يخفى أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق، مشغولًا بالتردد إليهم والمراءاة لهم، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتًا إلى ما يعظم منزلته عندهم، ويقتنص به قلوبهم!! وهذا جذر النفاق وأصل الفساد[1]».

رابعًا: التكاثر بالأتباع والشيوخ

وهذا النوع من التكاثر منشؤه من حب الشهرة والثناء والمباهاة، وهذه أمراض وآفات ومهلكات، وينتشر هذا النوع من التكاثر غالبًا في أوساط العلماء وطلاب العلم، حيث نجد منهم من يذكر كثرة طلابه وأتباعه والمتأثرين به، وكثرة المتابعين له في أجهزة التواصل اليوم، أو كثرة شيوخه، ولا سيما المشهورين منهم، ولو أنه لم يلتق به إلا مرة واحدة، ومن علامات هذا التكاثر: محبة الاجتماع حوله، وزهوه بكثرة الأتباع والدارسين، وتوقيرهم له، وخدمتهم له. ويفرح إذا عظمت حلقة الدرس عنده، وكثر متابعوه في التواصل. ويضيق ويتبرم إذا قل عدد الدارسين عنده أو انتقلوا إلى غيره، ويردد على

(١) انظر مختصر منهاج القاصدين ص٢١١، ٢١٢.

لسانه ذكر دروسه وكثرة من يحضرها، وقوله: هذا من طلابي، وهؤلاء طلابي، والمتابعين لي في التواصل الاجتماعي بالآلاف والملايين!!

قال ابن الجوزي رحمه الله: (ومنهم - أي العلماء وطلاب العلم - من يفرح بكثرة الأتباع، ويلبس عليه إبليس أن هذا الفرح لكثرة طلاب العلم، وإنما مراده كثرة الأصحاب واستطارة الذكر، وينكشف هذا بأنه لو انقطع بعضهم إلى غيره ممن هو أعلم منه ثقل ذلك عليه!! وما هذه صفة المخلص في التعليم، لأن مثل المخلص مثل الأطباء الذين يداوون المرضى لله سبحانه وتعالى، فإذا شُفِيَ بعض المرضى على يد طبيب منهم فرح الآخر)[1].

وقد كان السلف الصالح يتوقون هذه المزالق أشد التوقي، ويتحاشون الوقوع فيها.

فعن سليم بن حنظلة قال: أتينا أبي بن كعب رضي الله عنه لنتحدث إليه، فلما قام قمنا ونحن نمشي خلفه، فرهقنا عمر، فتبعه فضربه بالدرة!! قال: فاتقاه بذراعيه. فقال: يا أمير المؤمنين ما نصنع؟! قال: أو ما ترى؟! فتنة للمتبوع، مذلة للتابع)[2].

---

(١) تلبيس إبليس ص١٣١.
(٢) مصنف ابن أبي شيبة ١١/ ١٠٧.

وعن علي رضي الله عنه قال: (يا حملة القرآن اعملوا به، فإن العالم من عمل بما علم، ووافق عمله علمه، وسيكون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم، يخالف سريرتهم علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يجلسون حلقًا فيباهي بعضهم بعضًا، حتى إن أحدهم ليغضب على جليسه حين يجلس إلى غيره ويدعه. أولئك لا تصعد أعمالهم في مجالسهم تلك إلى الله)[١].

ولما مشوا خلف علي رضي الله عنه قال: (كفوا عن خفق نعالكم، فإنها مفسدة لقلوب نوكى الرجال)[٢].

وخرج ابن مسعود رضي الله عنه من منزله فتبعه جماعة فالتفت إليهم وقال: علام تتبعوني؟ فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما تبعني منكم رجلان.

وفي بعض الروايات قال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا، قال: ارجعوا؛ فإنه ذلة للتابع وفتنة للمتبوع[٣].

وكان أبو العالية رحمه الله إذا عظمت حلقته قام وانصرف، كراهة الشهرة[٤].

---

(١) كنز العمال (٢٩٤١٩).
(٢) كنز العمال ٣/ ٨٣٠. (ونوكى الرجال) أي الحُمُق منهم.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ٩/ ٢٠.
(٤) تهذيب الكمال ٨/ ١٧٠.

وقال شعبة: ربما ذهبت مع أيوب السختياني لحاجة فلا يدعني أمشي معه، ويخرج من ها هنا وها هنا، لكي لا يفطن له[١].

وكان الإمام أحمد رحمه الله إذا مشى في الطريق يكره أن يتبعه أحد، وكان يقول: أشتهي مكانًا لا يكون فيه أحد من الناس[٢].

وعن الحسن رحمه الله: (لا تغرنك كثرة من ترى حولك؛ فإنك تموت وحدك، وتبعث وحدك، وتحاسب وحدك)[٣].

وقال الأعمش: (جهدنا بإبراهيم حتى نجلسه إلى سارية فأبى)[٤].

وكان الحارث بن قيس الجعفي يجلس إليه الرجل والرجلان فيحدثهما فإذا كثروا قام وتركهم[٥].

وكان محمد بن سيرين إذا مشى معه الرجل قام، فقال: ألك حاجة؟! فإن كانت له حاجة قضاها، وإن عاد يمشي معه قام، فقال: ألك حاجة؟![٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٥.
(٢) الآداب الشرعية ٢/ ٩٢.
(٣) حلية الأولياء ٢/ ١٥٥.
(٤) الزهد لابن المبارك ١/ ٣٨٩.
(٥) تهذيب الكمال ٥/ ٢٧٣.
(٦) صفة الصفوة ٣/ ٢٤٣.

قال إبراهيم النخعي: إياكم أن توطأ أعقابكم[١].

قال عبدالرحمن بن مهدي: كنت أجلس يوم الجمعة فإذا كثر الناس فرحت، وإذا قلوا حزنت، فسألت بشر بن منصور، فقال: هذا مجلس سوء، فلا تعد إليه! فما عدت إليه!![٢].

خامسًا: التكاثر بالعلم والكتب

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: (... فالتكاثر في كل شيء من مال أو جاه أو رياسة أو نسوة أو حديث أو علم، ولا سيما إذا لم يحتج إليه. والتكاثر في الكتب والتصانيف وكثرة المسائل وتفريعها وتوليدها)[٣].

والمكاثرة بالعلم والكتب لها صور كثيرة من أهمها:

(أ) التكاثر باقتناء الكتب بطبعاتها المختلفة والمكاثرة بتأليفها وتكبيرها:

لا شك أن اقتناء كتب العلم لمن يستفيد منها من العلماء وطلاب العلم أمر مطلوب، وفيها من الفائدة والنفع ما لا يخفى، ولكن إذا تحول هذا الاقتناء إلى مكاثرة ومفاخرة ومباهاة مع قلة الاستفادة

(١) سنن الدارمي ١/ ١٣٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٢.
(٣) الفوائد ص٣٠.

منها، فهذا هو الأمر المذموم، وهذا هو الذي يدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾. ومن ذلك التكاثر باقتناء المخطوطات بأنواعها المختلفة من غير استفادة منها في تحقيق أو دراسة.

ومن ذلك كثرة التأليف في أمور لا فائدة فيها: مكررة، ونفخ الكتب بكثرة الهوامش والمقدمات والتراجم والمباهاة بكثرة المراجع في خاتمة الكتاب. ومن ذلك التكاثر بزخرفة الكتب، والمكاثرة بتقريظ بعض المشائخ أو طلاب العلم لها وثنائهم عليها، وملأ جلدة الكتاب بها، حتى لا تكاد تجد فيها فراغًا، وكأنها من صفحات الكتاب الداخلية.

يقول الشيخ عبدالكريم الخضير حفظه الله تعالى في معرض جواب له عن سؤال: كيف يبني طالب العلم مكتبته؟

(لا يخلو عالم أو طالب علم من مكتبة، لأنه لا يمكن أن يستغني عن الكتب، حتى زاد هذا الاهتمام ووصل إلى حد التكاثر والتفاخر. في (نفح الطيب) للمقري في وصف قرطبة قال: وهي أكثر بلاد الأندلس كتبًا، وأشد الناس اعتناء بخزائن الكتب. صار ذلك عندهم من آلات التعين والرئاسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة، يحتفل ويهتم أن يكون في بيته خزانة كتب، وقد يكون لا يقرأ ولا يكتب، وينتخب فيها ليس إلا أن يقال: فلان عنده خزانة كتب، الكتاب الفلاني لا يوجد إلا عند فلان، ليس هو عند

أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصله وظفر به[١]. فصارت المسألة تفاخرًا وتكاثرًا... إذا وصل جمع الكتب والعناية بها إلى هذا الحد صارت مما يلهي ويشغل عن تحصيل العلم والعمل الصالح، فيدخل دخولًا أوليًّا في قول الله ﷻ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، لأنه مجرد تكاثر، هذا وجد في المتقدمين والمتأخرين....

على الإنسان أن يكون متوسطًا في أموره كلها، ما يحتاجه من الكتب يقتنيه وما ينفعه عند المراجعة، أما أن يجمع كل كتاب يسمع عنه يحتاجه أو لا يحتاجه، ليقال: إن عنده من كل كتاب نسخة. فهذه مصيبة!! إن الفائدة من جمع الكتب تحصيل العلم الشرعي، والعلم الشرعي من أمور الآخرة المحضة التي لا يجوز التشريك فيها. فإذا دخلت النوايا مثل هذه المقاصد، ليقال: إن عند فلان مكتبة أو عنده أكبر مكتبة خاصة. فهذه حقيقة مرة، وقدح ظاهر في الإخلاص، وإن وجدت عند بعض المتعلمين نسأل الله السلامة والعافية[٢].

(ب) التكاثر والمباهاة في طلب العلم، ولا سيما الفقه منه والحديث، والمباهاة بمعرفة دقائقها وغرائبها

يقول الغزالي رحمه الله تعالى عن أصناف الناس في طلب العلم:

---

(١) نفح الطيب ١/ ٤٦٢.

(٢) انظر أرشيف ملتقى أهل الحديث ٣٩/ ٣٥٩- ٣٦١ في المكتبة الشاملة.

(واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال:

رجل طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد، ولم يقصد به إلا وجه الله والدار الآخرة؛ فهذا من الفائزين.

ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة، وينال به العز والجاه والمال، وهو عالم بذلك، مستشعر في قلبه ركاكة حاله وخسة مقصده، فهذا من المخاطرين، فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة، وبقي أمره في خطر المشيئة؛ وإن وفق للتوبة قبل حلول الأجل، وأضاف إلى العلم العمل، وتدارك ما فرط منه من الخلل - التحق بالفائزين، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان؛ فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال، والتفاخر بالجاه، والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كل مدخل، رجاء أن يقضي من الدنيا وطره، وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكانة، لاتسامه بسمة العلماء، وترسمه برسومهم في الزي والمنطق، مع تكالبه على الدنيا ظاهرًا وباطنًا.. فهذا من الهالكين، ومن الحمقى المغرورين؛ إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين، وهو غافل عن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]، وهو ممن قال فيهم رسول الله ﷺ: «**أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال**»، فقيل: وما هو يا رسول الله؟

فقال ﷺ: «**علماء السوء**»[١]. وهذا لأن الدجال غايته الإضلال، ومثل هذا العالم وإن صرف الناس عن الدنيا بلسانه ومقاله، فهو دافع لهم إليها بأعماله وأحواله، ولسان الحال أفصح من لسان المقال، وطباع الناس إلى المساعي في الأعمال أميل منها إلى المتابعة في الأقوال؛ فما أفسده هذا الغرور بأعماله أكثر مما أصلحه بأقواله، إذ لا يستجرئ الجاهل على الرغبة في الدنيا إلا باستجراء العلماء، فقد صار علمه سببًا لجرأة عباد الله على معاصيه، ونفسه الجاهلة مذلة مع ذلك تمنيه وترجيه، وتدعوه إلى أن يمن على الله بعلمه، وتخيل إليه نفسه أنه خير من كثير من عباد الله.

فكن أيها الطالب من الفريق الأول، واحذر أن تكون من الفريق الثاني، فكم من مسوف عاجله الأجل قبل التوبة فخسر، وإياك ثم إياك أن تكون من الفريق الثالث فتهلك هلاكًا لا يرجى معه فلاحك ولا ينتظر صلاحك)[٢].

- *ومن صور التكاثر في طلب العلم والمباهاة فيه التكاثر بالمسائل وتفريعها وتوليدها وافتراضها والانشغال بالأقوال الشاذة عن المهم من العلوم في التفسير والعقيدة والفقه والحديث.*

---

(١) لم أقف عليه في كتب الحديث المعروفة، وإن كان له شاهد في مصنف ابن أبي شيبة (٣٨٦٤١) عن علي رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ جلوسًا وهو نائم، فذكرنا الدجال، فاستيقظ محمرًا وجهه، فقال: «**غير الدجال أخاف عليكم عندي من الدجال: أئمة مضلون**».

(٢) بداية الهداية: المقدمة ص١، ٢.

- ومن التكاثر في العلم ولا سيما في علم الحديث التكلف في كثرة التخريجات، وذكر الطرق لحديث صحيح، جاء مخرجًا في الصحيحين أو أحدهما.

ومن لطيف ما ورد في هذا المعنى ما أخرجه ابن عبدالبر رحمه الله في جامعه عن حمزة الكناني رحمه الله قال: (خرجت حديثًا واحدًا عن النبي ﷺ من مئتي طريق أو من نحومئتي طريق - شك الراوي - قال: فداخلني من ذلك من الفرح غير قليل، وأعجبت بذلك، قال: فرأيت ليلة من الليالي يحيى بن معين في المنام فقلت له: يا أبا زكريا! خرجت حديثًا واحدًا عن النبي ﷺ من مئتي طريق، قال: فسكت عني ساعة ثم قال: أخشى أن يدخل هذا تحت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾[1].

وقد ساق الشاطبي رحمه الله هذه الحكاية في الموافقات، وعقب عليها بقوله: (وهو صحيح في الاعتبار؛ لأن تخريجه من طرق يسيرة كاف في المقصود منه، فصار الزائد على ذلك فضلًا)[2].

وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى: (أن قومًا أكثروا سماع الحديث، ولم يكن مقصدهم صحيحًا، ولا أرادوا معرفة الصحيح من غيره بجمع الطرق، وإنما مرادهم العوالي والغرائب، فطافوا

(١) جامع بيان العلم وفضله (١٠٢٣)، ٢/ ٢٥٩.
(٢) الموافقات ١/ ١١٤.

البلدان، ليقول أحدهم: لقيت فلانًا، ولي من الأسانيد ما ليس لغيري. وعندي أحاديث ليست عند غيري، وهذا كله من الإخلاص بمعزل، وإنما مقصدهم الرئاسة، والمباهاة، ولذلك يتبعون شاذ الحديث وغريبه)[١].

وكان الإمام أحمد رحمه الله تعالى ينكر على الذي يطلب الأسانيد الغريبة، التي أخطأ فيها الرواة، ويستكثر من ذلك، وقال: يجيئون بثلاثين إسنادًا أو نحو ذلك، ما أقل العلم عندهم، يعني يضيعون الوقت في سماع الأخطاء التي أخطأ فيها الرواة[٢].

وقيل ليحيى بن معين رحمه الله تعالى: لماذا لا تسمع بعض الأحاديث الغرائب، قال: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ يعني أن تستكثروا من الأشياء التي لا منفعة فيها، ولا تأثير فيها، ولا رجاء من ورائها[٣].

وقال ابن قتيبة رحمه الله تعالى في غريب الحديث: (ونعوذ بالله من حيرة الجهل وفتنة العلم وإفراط التعمق، وأن يشغلنا التكاثر بالعلم عن التفقه فيه، ويقطعنا ما وضعه الله عنا عما كلفنا فيه)[٤].

---

(١) تلبيس إبليس ص١٠٤، ١٠٥.
(٢) انظر أرشيف ملتقى أهل الحديث ٣/ ١٩٦.
(٣) انظر أرشيف ملتقى أهل الحديث ٣/ ١٩٦.
(٤) غريب الحديث ١/ ١٤٧.

وصدق ابن قتيبة رحمه الله تعالى، فكم رأينا من ينشغل بملح العلم وفروعه، التي لم يوجب الله علينا تعلمها عما كلفنا به من العلوم العينية، التي لا يسع أحد جهلها: كأحكام الوضوء والطهارة والصلاة والصيام وغير ذلك من فروض العين.

- *ومن صور التكاثر بالعلم ما يحرص عليه بعض المنتسبين إلى علم الحديث والقرآن من الحصول على الإجازات في رواية الحديث أو في بعض القراءات، والتكاثر والتفاخر بها. والله أعلم بما في القلوب.*

- *ومن صور التكاثر بالعلم ما يقع فيه بعض القراء وأئمة المساجد من التكلف والتنطع في ترتيل القرآن في الصلوات الجهرية، ولا سيما في صلاة التراويح والقيام في رمضان، والتكاثر في تنويع الأصوات وتمطيطها ورفعها.* وكذلك التكاثر في دعاء القنوت أو عند ختم القرآن برفع الأصوات وتنوع الدعاء، والإتيان بدعوات مخترعة، لا يخلو بعضها من مخالفات، وترك الجوامع من الأدعية النبوية الصحيحة، وتكلف البكاء، ورفع الصوت في ذلك. وإطالة الدعاء.

ولا يخفى ما في ذلك من الاعتداء في الدعاء والمكاثرة به، وقد قال الله عز وجل: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥]،

وقد يكون في ذلك إرضاء المصلين وجذبهم للصلاة خلفهم، وكل هذا لا يغني عند الله ﷻ حيث لا يبقى إلا العمل الصالح الذي يكون صاحبه مخلصًا لله ﷻ متبعًا للرسول ﷺ، ومثل هذه المكاثرة في القراءات والأدعية قد ينقصها الإخلاص والمتابعة والله أعلم بمن اتقى.

- *ومن صور التكاثر بالعلم المكاثرة بأخذ الأموال على تسجيل محاضرة أو دروس أو قراءة قرآن في صلاة التراويح والقيام وادعاء حفظ حقوقها لمحل التسجيل أو للقارئ والمحاضر.*

ولا يخفى ما في هذا الصنيع من الجشع وطلب الدنيا بالدين، وقد مر بنا قوله ﷺ: «**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**»(١)، كما مر بنا قوله ﷺ: «**أن لكل أمة فتنة وفتنة أمتي في المال**»(٢).

سادسًا: التكاثر في المأكولات والمشروبات

لقد بلغ الترف في المأكولات والمشروبات والمكاثرة فيها مبلغًا لم يسبق له نظير في الأزمنة السابقة، وألفت في فنون الطبخ الكتب والمجلات، وأنشئت المواقع الإلكترونية، وتزاحمت المطاعم في الشوارع،

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.

وامتلأت الأسواق والمحلات بكم هائل من المطعوم والمشروب، وتسابق الناس إليها، وتنافسوا في ملأ بيوتهم منها، وتسابقوا إلى المطاعم يعبون منها كل ما لذ لهم من أنواع المشروبات والمأكولات بأنواعها المختلفة والكثيرة، حتى بلغ في بعض المطاعم ما يربو على خمسين صنفًا من الأكل والشرب في قائمة المطعم التي تقدم للمرتادين.

ونسينا في خضم هذا الكم من المأكول والمشروب قول الله ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٠]، ونسينا قوله سبحانه عن أصحاب الشمال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤٥]، ونسينا قوله ﷺ: «**ما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(١)، وقوله ﷺ: «**المؤمن يأكل في معى واحد، والكافر يأكل في سبعة أمعاء**»(٢).

وصدق الرسول ﷺ، فلقد رأينا الشرور والأمراض في زماننا اليوم في شكل لم يسبق له نظير، فقد ظهرت أمراض كثيرة: كالسكري

(١) الترمذي (٥٣٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح وصححه الألباني في الصحيحة: (٢٢٦٥).
(٢) صحيح البخاري (٥٣٩٦)، مسلم (٢٠٦٢).

وارتفاع الضغط والجلطات والسكتات والأورام الخبيثة، ويرجع أغلبها إلى كثرة الأكل وأنواعه واستيراده بعجره وبجره.

وقد انتشرت في الأزمنة الأخيرة عادة دخيلة على مجتمعات المسلمين، فيها من التكاثر والترف والإسراف في المآكل والمشارب الشيء الكبير، ألا وهي ما يسمى (بالبوفيهات المفتوحة)، التي غالبًا ما تقام في مناسبات الزواج والاحتفالات الكبيرة، وفيها مساوئ شرعية من أهمها:

١- أن هذه العادة عادة غربية بحتة، جاءت من أمم الكفر الذين لا هم إلا متاع الحياة الدنيا، ففيها من التشبه بالكفار ما لا يخفى على أحد. وقد صح عنه ﷺ قوله: «**من تشبه بقوم فهو منهم**»(١).

٢- وفيها من التكاثر والتباهي والتفاخر بكثرة المأكولات والمشروبات والإسراف فيها إلى حد كبير، يصل في بعض المناسبات إلى ما لا يقل عن خمسين صنفًا من الطعام، في الوقت الذي يعاني فيه كثير من المسلمين في بقاع الأرض من الجوع والتشريد والضنك في المعيشة، ما لا يعلمه إلا الله ﷻ، فإن لم يكن هذا من التكاثر الذي حذرنا الله ﷻ منه بقوله ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ فأين يكون التكاثر؟

(١) أخرجه أبو داود (رقم ٤٠٣٣)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٥/ ١٠٩).

٣- فيها من البطر والمباهاة ما قد يصل بأهله إلى الكبر والترفع على الناس.

٤- تكليف صاحب الزواج وأهله ما لا يحتملون من الإنفاق على هذه (البوفيهات)، وقد يضطرهم إلى تحمل الديون، ليتكاثروا مع غيرهم، ويسايروهم، ولا يتخلفوا عنهم.

٥- الإخلال بآداب الضيافة والإكرام للضيوف القائم على خدمة الضيف وتقديم الطعام إليه، حيث إن الحاصل في مثل هذه الموائد أن الضيف يطلب منه أن يقوم إلى الطعام يخدم نفسه بنفسه، ويقف في طابور ماسك بصحنه، ولا يخفى ما في ذلك من الإهانة للضيف وليس الإكرام. قال الله ﷻ عن خليله إبراهيم ﷺ وإكرامه لضيوفه المكرمين: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجۡلٖ سَمِينٖ ٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيۡهِمۡ قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٦ - ٢٧].

٦- الأكل على المناضد (الطاولات) وهي (الخوان)، وهذه من عادة المترفين والمترفعين، وكان من هديه ﷺ أن يأكل على الأرض، ويكره الأكل على خوان، وقد ثبت ذلك في صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال: (لم يأكل النبي ﷺ على خوان حتى مات، وما أكل خبزًا مرققًا حتى مات)[1]، قال ابن حجر رحمه الله تعالى في

(١) البخاري (٦٤٥٠).

شرحه لهذا الخبر: (قال ابن بطال: تركه ﷺ الأكل على الخوان وأكل المرقق، إما هو لدفع طيبات الدنيا اختيارًا لطيبات الحياة الدائمة، والمال إنما يرغب فيه ليستعان به على الآخرة... وحاصله أن الخبر لا يدل على تفضيل الفقر على الغنى، بل يدل على فضل القناعة والكفاف وعدم التبسط في ملاذ الدنيا)[١].

وقال ابن بطال في شرحه للخبر: (أكل المرقق مباح، ولم يتجنب النبي ﷺ أكله إلا زهدًا في الدنيا، وتركًا للتنعم، وإيثارًا عند الله كما ترك كثيرًا مما كان مباحًا، وكذلك الأكل على الخوان مباح أيضًا)[٢].

وجاء في شرح هذا الخبر في تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي: (قال التوربشتي: الخوان الذي يؤكل عليه معرب، والأكل عليه لم يزل من دأب المترفين وصنيع الجبارين، لئلا يفتقروا إلى التطأطئ عند الأكل، كذا في المرقاة)[٣].

٧- فيه من الإسراف وتبذير المال وتبذير الطعام ورميه في أوعية النفايات بما لا يقره عقل ولا شرع.

---

(١) فتح الباري ١١/ ٢٨٠.
(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/ ٤٦٩.
(٣) تحفة الأحوذي ٥/ ٣٩٨.

٨- ومن مساوئها عدم الاجتماع على الطعام، فكل شخص يختص بصحنه وطعامه، لا يشاركه فيه الآخر، ولا يخفى ما في الأكل من طعام مشترك من الأنس واجتماع القلوب وحضور البركة، ما لا يكون في التفرق. وقد جاء في سنن أبي داود رحمه الله تعالى أن رجلًا قال للنبي ﷺ: إنا نأكل ولا نشبع، قال: «**لعلكم تأكلون متفرقين، اجتمعوا على طعامكم، واذكروا اسم الله، يبارك لكم فيه**»(١).

سابعًا: التكاثر في اللباس والرياش والزينة

وهذا النوع من التكاثر من الوضوح والظهور مما لا يحتاج فيه الأمر إلى مزيد من القول والإثبات، بل إنه مما تميز به زماننا اليوم، وتنافس الناس فيه، وتكاثروا في أشكاله، وتفاخروا، هو ذلك التكاثر في أنواع الملبوسات والرياش - ثيابًا وعباءات وجلابيب وأحذية وغيرها، فتبارى الناس فيها كمًّا وكيفًا، فأصبحنا نرى العشرات من الثياب والعباءات والأحذية لشخص واحد ولموسم واحد - وما نبرئ أنفسنا - فلقد امتد هذا النوع من التكاثر إلى كثير من الدعاة وطلبة العلم، حتى إنه ذكر لي أن بعض أئمة المساجد يمتلكون الكثير من العباءات (البشوت) متعددة الأشكال، غالية الأسعار، يظهرون فيها للمصلين كل يوم في لون ونوع من هذه العباءات، أفليس هذا من التفاخر والتكاثر؟ في الوقت الذي يعاني بعض إخواننا المسلمين

(١) سنن أبي داود (٣٧٦٦) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١٢٨).

المشردين من شح في اللباس، حتى لا يكاد يجد الواحد منهم ما يستر به جسمه، فضلًا أن يجد من اللباس ما يقيه البرد أو حر الشمس.

ولقد برز هذا النوع من التكاثر، وبلغ ذروته في أوساط النساء.

فنظرة سريعة تنظر فيها المرأة إلى نفسها وما في خزانتها من الثياب والأحذية بمختلف أنواعها وأشكالها ثريها وبشكل واضح وصارخ أنها تدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، فكم من العشرات من الثياب والأحذية تملكها وبأثمان غالية، وكم من ثوب لبسته المرأة مرة واحدة، لم تلبسه بعد ذلك، لظهور موضات جديدة من الثياب، فتستحي أن تظهر بين جليساتها في ثوب قديم!!

وأصبح النساء بهذه المكاثرة والمفاخرة أسيرات لبيوت الأزياء العالمية الكافرة، حيث تلعب هذه البيوت بعقول النساء القاصرة، فأشغلوهن بهذه الموضات ومتابعتها والمكاثرة فيها.

هذا من جانب المكاثرة والتباهي، أما إذا جئنا إلى أشكال هذا اللباس، وما فيه من المخالفات الشرعية من ضيق وشفاف وشبه عار، فحدث ولا حرج، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى في حديثه عن ظاهرة استعباد بيوت الأزياء للنساء:

(وهـذه التصورات المبهمـة الغامضة؛ وهذا العـرف الاجتماعي الذي ينبثق منها، ويضغط على جمهرة الناس بثقله الساحق.. لا ينحصر في تلك الصورة التي عرفتها الجاهليات القديمة، فنحن نشـهده اليوم بصـورة أوضح في الجاهليات الحديثة.. هذه العـادات والتقاليد التي تكلف الناس العنت الشـديد في حياتهم، ثم لا يجدون لأنفسهم منها مفرًّا.. هذه الأزياء والمراسـم التي تفرض نفسـها عـلى الناس فرضًا، وتكلفهم أحيانًا ما لا يطيقون من النفقة، وتأكل حياتهم واهتماماتهم، ثم تفسـد أخلاقهم وحياتهم، ومع ذلك لا يملكون إلا الخضوع لها.. أزيـاء الصباح، وأزياء بعـد الظهر، وأزياء المسـاء.. الأزياء القصيرة، والأزيـاء الضيقـة، والأزيـاء المضحكـة! وأنـواع الزينـة والتجميـل والتصفيـف... إلى آخـر هذا الاسـترقاق المذل.. من الـذي يصنعه؟ ومـن الـذي يقـف وراءه؟ تقف وراءه بيـوت الأزيـاء، وتقف وراءه شركات الإنتـاج! ويقـف وراءه المرابـون في بيوت المـال والبنوك من الذين يعطون أموالهم للصناعات، ليأخذوا هم حصيلة كدها! ويقف وراءه اليهود الذين يعملون لتدمير البشرية كلها، ليحكموها!)[1].

---

(١) في ظـلال القـرآن ٣/ ١٥٨، عند قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ... الآية﴾ [الأنعام: ١٣٧].

ثامنًا: التكاثر في اقتناء أجهزة التقنية المعاصرة من حواسب وأجهزة اتصالات وقنوات:

المتابع لهذا النوع من التكاثر يجده واضحًا وضوح الشمس، حيث أصبح منتشرًا في كثير من أوساط الناس ولا سيما الشباب والنساء، فنجد مثلًا أن كثيرًا من الأشخاص يتباهى ويتكاثر مع غيره في كونه يمتلك أعدادًا من الحواسب (أجهزة الكمبيوتر) وأعدادًا من الجوالات: جوال للاتصال، وجوال عام، وجوال خاص، وجوال للتواصل وجوال لمتابعة الأخبار، أو كونه يقتني كثيرًا من القنوات، وكلما ظهر نوع جديد من هذه الأجهزة سارعوا في اقتنائها وترك القديم منها، وكل ذلك بأثمان غالية، ربما اشتراها بعض الناس بدين على ظهره!! أفليس هذا من التكاثر؟ وإذا أضيف إلى ذلك التكاثر. التكاثر في الانشغال بها وضياع الأوقات في متابعة ما فيها فيا لها من مصيبة!!

هذا إذا استخدمت هذه الأجهزة في المباح، فكيف إذا استخدمت هذه الأجهزة في سماع ورؤية الحرام والتكاثر في ذلك؟؟ إن الأمر جد خطير، وصدق الله العظيم ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾.

تاسعًا: التكاثر في ألعاب الأطفال ووسائل ترفيههم

اللعب عند الأطفال أمر لا ضير فيه، بل لا بد منه في حياتهم، وفوائده معروفة، وليس المقام مقام ذكر أهمية اللعب والمرح وفوائد ذلك للأطفال، فلذلك مقام آخر.

وإنما الحديث هنا عن المغالات وإنفاق الأموال الطائلة في توفير الألعاب للأطفال بشتى أنواعها المفيد منها والضار، وتلبية رغبة الطفل في كل ما يريد من الألعاب، ميلًا مع محبته والعاطفة نحوه، دون التمييز بين هذه الألعاب.

وقد أدى هذا إلى امتلاء البيوت من الألعاب، التي تكاثر الناس فيها لأطفالهم، فلعبوا فيها يومًا أو يومين، ثم هجروها إلى ألعاب جديدة، وهكذا حتى أرهق ذلك ميزانية كثير من البيوت بحجة الترفيه عن أطفالهم.

ومما يزيد الأمر خطورة ما ظهر في السنوات الأخيرة من أجهزة إلكترونية وفيديو في ألعاب الأطفال، وما تحمل من خطر كبير على عقيدة الطفل وأخلاقه ونفسيته وصحته[1]، دون أي مراقبة أو إشراف من الوالدين على ذلك، وأصبحت ترى الطفل وبيده ما يسمى بالأجهزة

(١) انظر هذه الأخطار في كتاب: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ للمؤلف.

الذكية من (آي فون) (وأي باد) دون رقيب أو حسيب، وأصبح التكاثر بين الأطفال فيها شيء ملاحظ، بل تكاثر فيها الآباء والأمهات لأطفالهم، وصدق الله العظيم ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾.

عاشرًا: التكاثر في الأسفار والحل والترحال

وهذا النوع من التكاثر ظاهر عند بعض الناس وإن كانوا قلة، فتراهم يتحدثون ويتفاخرون بكثرة أسفارهم وتنقلهم في البلدان، وقد يكون هذا لحاجة كالتجارة أو الدعوة، وقد يكون لغير حاجة، وإنما مجرد النزهة والسياحة. وقد يكون والعياذ بالله للبحث عن الحرام، وليس الحديث هنا عن سفر المعصية، فله فقرة مستقلة آتية إن شاء الله تعالى، وإنما الحديث هنا عن الأسفار المباحة أو كونها للدعوة أو التجارة، فلكم سمعنا من بعض الدعاة من يكاثر بأسفاره، ويعدد المدن والدول التي زارها والشخصيات التي قابلها، وقد يكون في ذلك مكاثرة، وكم سمعنا من بعض العوائل الذين بدأوا يسافرون للنزهة في بلاد الغرب أو الشرق الكافرة، وما فيها من المنكرات، من يتباهي في ذلك، ويكاثر غيره فيها، مما جعل بعض الناس أفرادًا أو عوائل يسعى للحاق بهؤلاء، فأرهقوا أنفسهم ماديًّا ونفسيًّا، ليكاثروا غيرهم في ذلك تحت ضغط النساء والأطفال، وقد يضطر قيِّم الأسرة إلى أن يحمل ظهره من الديون ليغطى نفقات السفر، أليس هذا من التكاثر؟

بلى والله، وصدق الله العظيم ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾.

حادي عشر: التكاثر في الكلام والخطب والمحاضرات والمقابلات الإعلامية

دعوة الناس إلى الله ﷻ بالخطبة والمحاضرة والمواعظ والدروس، أمر يتراوح بين الواجب والمستحب، وهو أمر محبوب إلى الله ﷻ، ولكن ينبغي الحذر من أن يتحول الأمر من كونه دعوة ونصح للناس إلى أن يمازجه شعور المتكاثر بالتباهي بكثرة الكلام، والتفاصح فيه، وتكراره، أو بالتباهي بكثرة الظهور في وسائل الإعلام المقروءة أو المسموع أو في شاشات القنوات، وحِرْصِ المكاثرين في ذلك في أن يكون أحدهم أكثر حضورًا من غيره في مثل هذه الوسائل الإعلامية.

وقد يصل الحال لبعض هؤلاء المتكاثرين إلى أن يخرج في وسائل إعلامية خبيثة تسعى لنشر الرذيلة والصد عن سبيل الله ﷻ، وقد يتنازل هذا المكاثر عن أمور شرعية، ليخرج في هذه القناة أو تلك.

ومما له علاقة بهذا النوع من التكاثر، تكاثر بعض الدعاة بما يكون له من المتابعين والمشاهدين له من الألوف المؤلفة أو الملايين المملينة، وأن يكون له اسمٌ لامعٌ عندهم.

وعلى كل حال فأمر القلوب علمها عند علام الغيوب «**إنما الأعمال بالنيات**»، وليس المقصود هنا أن تتهم أحدًا في نيته، وإنما

المقصود الحذر من هذا النوع من التكاثر، الذي قد يدخل منه الشيطان ليفسد الأعمال والقلوب.

ثاني عشر: التكاثر بالجهاد والغزو والابتلاء في سبيل الله ﷻ

الجهاد في سبيل الله ﷻ من أفضل الأعمال والعبادات عند الله ﷻ، وليس المقام مقام التدليل على ذلك، وإنما المقصود هنا الحرص على النية في هذه العبادة العظيمة بأن تكون خالصة لله ﷻ وعلى منهاج النبوة، ومن علامات الإخلاص في ذلك الحرص على إخفائه وعدم ذكره للناس إلا لمصلحة راجحة، وأما التكاثر فيه وترداد ذكره وذكر الأماكن والثغور التي تقلب فيها المجاهد، فيخشى على صاحبه من الرياء والمباهاة بذلك، وقد كان هذا هو دأب سلفنا الصالح رحمهم الله تعالى، فلم يكونوا يتحدثون عن جهادهم، ولا عمَّا واجهوه من الزلازل والابتلاءات فيه، إلا لمصلحة راجحة في ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ طلع علينا شاب من الثنية، فلما رأيناه بأبصارنا قلنا له: لو أن هذا الشاب جعل شبابه ونشاطه وقوته في سبيل الله ﷻ، قال: فسمع مقالتنا رسول الله ﷺ فقال: «**وما سبيل الله إلا من قتل؟ من سعى على والديه ففي سبيل الله، ومن سعى على عياله ففي سبيل الله، ومن سعى**

على نفسه ليعفها ففي سبيل الله، ومن سعى على التكاثر فهو في سبيل الشيطان»[١].

وعن عبدالله عن عمرو قال: يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والغزو، فقال ﷺ: «**يا عبدالله بن عمرو إن قاتلت صابرًا محتسبًا بعثك الله صابرًا محتسبًا، وإن قاتلت مرائيًا مكاثرًا بعثك الله مرائيًا مكاثرًا**»[٢].

قال في عون المعبود (قال الطيبي: التكاثر أي التباري في الكثرة والتباهي بها. وقال ابن الملك: قوله مكاثرًا أي مفاخرًا. وقيل: (هو أن يقول الرجل لغيره: أنا أكثر منك مالًا وعددًا، أي غزوت ليقال: إنك أكثر جيشًا وأشجع، أن ينادى عليك يوم القيامة إن هذا غزا فخرًا ورياء لا محتسبًا)[٣].

قال ابن قتيبة في عيون الأخبار: (حاصر مسلمة حصنًا، فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله، ففتحه الله عليهم، فنادى مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاءه أحد، فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلا جاء! فجاء رجل، فقال: استأذن لي على الأمير، فقال له:

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي (٩٨٩٢)، مصنف عبدالرزاق (٩٥٧٨).
(٢) أبو داود (٢٥٢١) وضعفه الألباني في ضعيف أبي داود (٤٣٤).
(٣) عون المعبود ٧/ ١٣٩.

أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه. فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له، فقال له: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثًا: ألا تسودوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو. قال: فذاك له، قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب[١].

وذكر ابن الجوزي في صفة الصفوة أن ابن المبارك رحمه الله تعالى كان يضع اللثام على وجهه عند القتال لئلا يعرف، وقال أحمد: (ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبيئة كانت له)[٢].

ثالث عشر: التكاثر في فعل المحرم واقتراف الظلم ونشر الفساد

وهذا والعياذ بالله أسوأ أنواع التكاثر وأخطرها وأرذلها، فإذا كان التكاثر محرم وممقوت عند الله عز وجل في الأمور المباحة فكيف بالتكاثر والتباهي بفعل المحرمات ونشر الفساد؟ إنه أشد جرمًا وإثمًا وخطرًا.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ: «**كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملًا ثم يصبح**

(١) عيون الأخبار ٢٦٦.
(٢) صفة الصفوة ٤/ ١١٥.

قد ستره ربه، فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا. وقد بات يستره ربه...»[١].

وقد يقول قائل: وهل أحد يكاثر ويباهي بمعاصيه وظلمه وإفساده؟ والجواب: نعم، ولا سيما في واقعنا المعاصر، وما ظهر فيه من وسائل الفساد وسهولة الوصول إلى المحرم وكثرة المظالم، حيث صادف هذا نفاقًا في القلب، أو ضعفًا في الإيمان، وقلة خوف من الله ﷻ، ونسيان للآخرة والحساب، وركونًا إلى الدنيا وزينتها الفانية، فنجم عن ذلك من يجاهر ويكاثر بمعاصيه، دون أدنى حياء أو خوف من الله ﷻ، أو حياء من الناس، والعياذ بالله ﷻ من ذلك.

ومن أمثلة هذا النوع من التكاثر:

١- التكاثر بفعل الحرام من فعل الفاحشة أو أكل الربا أو الرشوة والمال الحرام، حيث تجد هذا المكاثر بدلًا من أن يستتر بمعصيته أو يتوب منها، تراه يجاهر بها، ويكاثر فيها، ويرى أن ذلك حنكة وذكاء وشجاعة!!!

٢- التكاثر في الأسفار المحرمة إلى ديار الكفر والعهر والفساد، فتراه يعدد أسفاره ومغامراته، بل قد يأتي بالصور الفاضحة ليكاثر بها ويفاخر بها عند معارفه وأصدقائه، والعياذ بالله تعالى.

---

(١) البخاري (٦٠٦٩)، مسلم (٢٩٩٠).

٣- التكاثر بظلم العباد في أعراضهم وأموالهم وأنفسهم، ويعد هذا المكاثر صنيعه هذا حزمًا وشجاعة، فكم رأينا من يأكل أموال الناس بالباطل ويكاثر بذلك، ولا سيما أموال الأجراء والعمال والأيتام والوصايا.

وكم رأينا من يكاثر بوظائفه التي يأخذ عليها أجرًا، دون أن يقدم مقابل ذلك عملًا أو حضورًا لمقر العمل، وكم رأينا من يكاثر بانتداباته خارج مقر عمله، دون أن يذهب أو يسافر للمكان المنتدب إليه، ولا يحرك ذلك ساكنًا في قلبه.

٤- التكاثر بظلم الدعاة والمجاهدين، والتباهي بالوشاية بهم إلى الظلمة، الذين يتكاثرون بسجونهم وما فيها من ألوان الأذى والتعذيب النفسي والجسدي.

٥- تكاثر وسائل الإعلام المقروء منها والمشاهد والمسموع في نشر الرذيلة، والتسابق بين القنوات في نشر الفساد والصد عن سبيل الله ﷻ، والوقوف في وجه المصلحين والدعاة والمجاهدين، والتكاثر في الثلب منهم، واستعداء الظلمة عليهم، والتنافس في بث الشبهات والشهوات في صفوف الأمة.

أما حين نتجاوز المسلمين إلى أعدائهم الكفرة، فإنا نجد تنافسهم وتكاثرهم في إنتاج أسلحة الدمار الشامل، والتكاثر بضرب المسلمين بحجة ضرب الإرهاب ونشر السلام - زعموا - ويتصل بهذا نوع آخر من التكاثر، ألا وهو التكاثر والتباهي بالنفاق السياسي، وخداع الناس، والتلبيس عليهم، ويشترك معهم في هذا النوع من النفاق منافقو زماننا من أفراد وطوائف..[١].

(١) انظر كتاب ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ للمؤلف.

الفصل الرابع

ذكر بعض الأضرار والآفات الناجمة عن التكاثر في هذه الدنيا

إن في نسيان الآخرة والركون إلى الدنيا والتكاثر فيها لأخطارًا جسيمة في الدنيا والآخرة، يجب علينا أن نحذرها ونحذر منها، ونسعى للتخلص مما حل بنا منها، ومن أهم هذه الأضرار ما يلي:

- **أولًا: التعرض لسخط الله ﷻ وعقابه بالتفريط في أداء الواجبات والطاعات، والجرأة على المعاصي والمحرمات**

لا يستوي من كانت الآخرة همه ولم يركن إلى الدنيا، مع من كانت الدنيا همه قد انشغل بالتكاثر فيها عن آخرته.

فبينما نجد الأول حريصًا على فعل الطاعات من واجبات ومستحبات، منتهيًا عن المعاصي والمحرمات، خائفًا من يوم الحساب، فإنا نجد الآخر المنشغل بدنياه المكاثر بها، قد فرط في الكثير من الواجبات، وتهاون بالمحرمات، وقل واعظ الله والدار الآخرة في قلبه، وذلك لضعف هم الآخرة الذي يحول بينه وبين تركه للطاعات وفعله للمحرمات، ومآل هذا إلى سخط الله وعذابه، إن لم يرحمه الله.

يتحدث سيد قطب رحمه الله تعالى عن جاذبية المعصية لمن نسي الآخرة، واغتر بالحياة الدنيا، وذلك عند قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، فيقول: (الكل يموت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ﴾) كل نفس تذوق هذه الجرعة، وتفارق هذه الحياة، لا فرق بين نفس ونفس في تذوق هذه الجرعة... إنما الفارق في شيء آخر، والفارق القيمة التي يكون فيها الافتراق، وهذا هو المصير الذي يفترق فيه فلان عن فلان، القيمة الباقية التي تستحق السعي والكد. والمصير المخوف الذي يستحق أن يحسب له ألف حساب.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

ولفظ ﴿زُحْزِحَ﴾ بذاته يصور معناه بجرسه، ويرسم هيئته، ويلقي ظله! وكأنما للنار جاذبية تشد إليها من يقترب منها، ويدخل في مجالها! فهو في حاجة إلى من يزحزحه قليلًا قليلًا، ليخلصه من جاذبيتها المنهومة! فمن أمكن أن يزحزح عن مجالها، ويستنقذ من جاذبيتها، ويدخل الجنة فقد فاز. صورة قوية، بل مشهد حي، فيه حركة وشد وجذب! وهو كذلك في حقيقته وفي طبيعته، فللنار جاذبية! أليست للمعصية جاذبية؟ أليست النفس في حاجة إلى من يزحزحها زحزحة عن جاذبية المعصية؟ بلى! وهذه هي زحزحتها عن النار! أليس

الإنسان - حتى مع المحاولة واليقظة الدائمة - يظل أبدًا مقصرًا في العمل.. إلا أن يدركه فضل الله؟ وهذه هي الزحزحة عن النار؛ حين يدرك الناس فضل الله، فيزحزحه عن النار! ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

إنها متاع، ولكنه ليس متاع الحقيقة، ولا متاع الصحو واليقظة.. إنها متاع الغرور، المتاع الذي يخدع الإنسان فيحسبه متاعًا، أو المتاع الذي ينشئ الغرور والخداع! فأما المتاع الحق، المتاع الذي يستحق الجهد في تحصيله.. فهو ذاك.. هو الفوز بالجنة بعد الزحزحة عن النار)[1].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال ﷻ: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٦ - ٣٧].

ومن المحرمات التي يكثر فعلها بسبب الركون إلى الدنيا والتكاثر فيها ما يلي:

---

(١) في ظلال القرآن ٢/ ٢٢.

أ- ضعف الإخلاص، والوقوع فيما يضعفه أو يزيله، من الرياء وحب الرئاسة والشهرة وكثرة الأتباع، وما ينشأ عن ذلك من العجب والكبر، والغرور بالدنيا وزينتها، والتعالي على الناس بسببها.

ب- عدم المبالاة بالمصدر الذي يحصل منه على الدنيا من حلال أم حرام، فالمهم أن يكثر ماله، وأن يكون أكثر من غيره مالًا أو جاهًا، ولو كان ذلك من ربًا أو غصب أو غش أو رشوة وغيرها، قال الله تعالى ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦].

جـ- ظلم العباد والتعدي على حقوقهم أو منعهم إياها، وهذا إنما ينشأ من الانشغال بالدنيا ونسيان الآخرة، وما فيها من الحساب، والفصل بين الخلائق، وإنصاف المظلوم من ظالمه. إذ لو كان هذا على البال، لما كان الظلم من العباد.

د- التفريط في أداء الصلاة في وقتها ومع جماعة المسلمين، ذلك للانشغال بالدنيا والتكاثر فيها، فليس أثقل على أهل الدنيا من أداء الصلاة في جماعة، والمحافظة على أوقاتها وأركانها وخشوعها، فضلًا عن نوافلها.

هـ- التفريط في أداء الزكاة والبخل بها، فضلًا عن الصدقات والنفقات المستحبة، وذلك لتمكن حب الدنيا من القلب ونسيان الآخرة.

يتحدث الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى عن أوجه كون حب الدنيا رأس الخطايا ومفسدًا للدين، فيقول:

(إن محبتها تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة، لاشتغاله عنه بمحبوبه.

والناس ها هنا مراتب:

- فمنهم: من يشغله محبوبه عن الإيمان وشرائعه.
- ومنهم: من يشغله عن الواجبات التي تجب عليه لله؛ ولخلقه؛ فلا يقوم بها ظاهرًا ولا باطنًا.
- ومنهم: من يشغله حبها عن كثير من الواجبات.
- ومنهم: من يشغله عن واجب يعارض تحصيلها وإن قام بغيره.
- ومنهم: من يشغله عن القيام بالواجب في الوقت الذي ينبغي على الوجه الذي ينبغي، فيفرط في وقته وفي حقوقه.

• ومنهم: من يشغله عن عبودية قلبه في الواجب، وتفريغه لله عند أدائه، فيؤديه ظاهرًا لا باطنًا، وأين هذا من عشاق الدنيا ومحبيها؟ هذا من أندرهم.

وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفريغ القلب لحب الله ولسانه لذكره، وجمع قلبه على لسانه، وجمع لسانه وقلبه على ربه)[١].

ثانيًا: انتشار الحسد والأحقاد والفرقة والبغضاء بين الناس

قد مر بنا قوله ﷺ: «**فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**»[٢].

هذا ما كان يخافه نبي الرحمة عليه الصلاة والسلام الحريص على أمته، المشفق عليهم، حيث لم يخش على أمته الفقر، كما يخشى ذلك الوالد على ولده، وإنما كانت خشيته ﷺ على أمته من الغنى وكثرة الدنيا وانبساطها على الناس، وما يؤول إليه ذلك من التحاسد والتباغض والفرقة، بل والاقتتال في بعض الأحيان، وصدق

(١) عدة الصابرين ص٣٥٤.
(٢) سبق تخريجه.

الرسول ﷺ فكم رأينا من القطيعة والهجران والشحناء بين الأقارب والإخوان والأصدقاء بسبب التكاثر في هذه الدنيا الزائلة، وكم تقاتل أهل المناصب والرياسات فيما بينهم، وهم أشقاء وأعمام من أجل هذه الدنيا ومناصبها وجاهها. هذا هو عاقبة التكاثر والتنافس في الدنيا، ألا وهو الهلاك في الدنيا والآخرة، عياذًا بالله تعالى.

قال الأصمعي: (مر قيس بن زهير ببلاد غطفان، فرأى ثروة وجماعة وعددًا، فكره ذلك، فقال له الربيع بن زياد: إنه يسوؤك ما يسر الناس، فقال له: يا أخي إنك لا تدري أنه مع الثروة والنعمة التحاسد والتخاذل، وأن مع القلة التحاشد والتناصر)[١].

ويقول ابن الجوزي: (تأملت التحاسد بين العلماء، فرأيت منشأه من حب الدنيا، فإن علماء الآخرة يتوادون ولا يتحاسدون، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩][٢].

(وقد يقع التحاسد بسبب الإعجاب بالفضائل في الأنساب والعلم والعبادات، والغالب أن الحسد لا يقع إلا بين المشتركين في فضيلة من الفضائل، أو في شيء من الأسباب الدنيوية، فلا يحسد الفقيه النحوي، ولا التاجر الجمال، ولا الصانع البقال)[٣].

---

(١) المجالسة وجواهر العلم ١/ ٤٧١.
(٢) صيد الخاطر ١/ ٢.
(٣) انظر: مقاصد الرعاية لحقوق الله تعالى ص١٥٣.

ولـو تأملنـا الفرقة الحاصلة اليوم بين بعـض الدعاة وفي صفوف بعـض المجاهدين، لرأينـا أن من بعض هذه الأسـباب: التنافس على الدنيا ومناصبها وزينتها الفانية، نسأل الله ﷻ العافية.

ثالثًا: اختلال الموازين واضطراب التصورات وسفول الأخلاق

لا يسـتوي مـن يؤمن بـالله واليوم الآخـر ويوقن بيوم الحسـاب والجـزاء، مـع من لا يؤمـن بالآخرة أو يؤمـن بها، لكنـه في لهو وغفلة عنها بتكاثره في هذه الدنيا الفانية، إنهما لا يستويان أبدًا في الدنيا ولا في الآخـرة، قال تعـالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، ويقول سـبحانه: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، ويقول سـبحانه عن الفريقـين في الآخرة ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، إن الفريقين لا يستويان في موازينهما، التي توزن بها الأشياء والمواقف والأحداث،ولا يستويان في أخلاقهما، فبينما تسـمو أخلاق الأول، وتنضبط موازينه بموازين الشرع والإيمان باليـوم الآخـر، فإنـا نجدها عنـد الراكنـين إلى الدنيـا أخلاقًا سـافلة، وموازين مختلة مضطربة. يقول الله ﷻ في وصف هذا الفريق: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية:

(ومن ثم لا يلتقي إنسان يؤمن بالآخرة ويحسب حسابها مع آخر يعيش لهذه الدنيا وحدها، ولا ينتظر ما وراءها، لا يلتقي هذا وذاك في تقدير أمر واحد من أمور هذه الحياة، ولا قيمة واحدة من قيمها الكثيرة، ولا يتفقان في حكم واحد على حادث أو حالة أو شأن من الشؤون، فلكل منهما ميزان، ولكل منهما زاوية للنظر، ولكل منهما ضوء يرى عليه الأشياء والأحداث والقيم والأحوال..

هذا يرى ظاهرًا من الحياة، وذلك يدرك ما وراء الظاهر من روابط وسنن، ونواميس شاملة للظاهر والباطن، والغيب والشهادة، والدنيا والآخرة، والموت والحياة، والماضي والحاضر والمستقبل، وعالم الناس، والعالم الأكبر الذي يشمل الأحياء وغير الأحياء)[1].

إن الراكنين إلى الدنيا المتكاثرين فيها لا يرون إلا هذه الحياة الدنيا، فهم يتنافسون فيها على هذا الحجر الضيق، فإن وزنوا أمورهم فبميزان الدنيا يزنون، وإن اتخذوا مواقفهم وبنوا أحكامهم، فهم من هذه الدنيا ينطلقون، وإن كان عندهم شيء من الأخلاق فبقدر ما تحقق لهم مصالحهم وشهواتهم فحسب، وإن وزنوا الناس فبميزان الدنيا والمال والجاه، لا بميزان الدين والتقوى، وإن وزنوا الفرح

(١) في ظلال القرآن الآية (٧)، من سورة الروم.

والحزن، فمن أجل الدنيا يفرحون إذا أقبلت، ويحزنون إذا أدبرت، أما مواسم الآخرة فلا يفرحهم إذا أقبلت، ولا يحزنهم فواتها. وإن وزنوا الفقر والغنى فبميزان الدنيا يزنون، وليس في حسابهم قوله ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس**»(١).

وهكذا في بقية الموازين(٢)، وأختم هذه الفقرة بالقصة العجيبة التي قصها الله ﷻ لنا في كتابه، وكررها سبحانه في القرآن، لما فيها من العظة والعبرة، يبين لنا سبحانه فيها كيف تغيرت موازين وأخلاق سحرة فرعون من موازين أرضية دنيوية، همها المنصب والجاه قبل إيمانهم بالله ﷻ واليوم الآخر، إلى موازين عالية وهمم وأخلاق سامقة بعد إيمانهم بالله واليوم الآخر. قال الله ﷻ عن حالهم واهتماماتهم حال كفرهم قبل مباراتهم مع موسى عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١-٤٢].

فكان همهم قبل الإيمان المنصب والأجر والقرب من فرعون. أما بعد وضوح الحق وإيمانهم بالله واليوم الآخر، فقد تغيرت الموازين، وكان همهم مغفرة الله ﷻ لهم، والثواب الجزيل في جنات النعيم، وكان

(١) البخاري (٦٤٤٦) مسلم (١٠٥١).
(٢) للتوسع في هذه الموازين يرجع إلى كتاب (الميزان) للمؤلف.

مـن ذلك تحديهم لفرعـون وتهديداته وثباتهم على الحق. قال الله تعالى عـن موقفهم بعد أن هددهم فرعون بالقتل والصلب بعد سـجودهم لله ﷻ: ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ [طه: ٧٢ - ٧٦].

رابعًا: طول الأمل وضياع الأعمار

إن من أخطر الأبواب التي يدخل منها الشيطان على العبد طول الأمـل والأمـاني الخادعـة، التي تجعـل صاحبها في غفلة شـديدة عن الآخـرة، وذلك باغـتراره بزينة الحيـاة الدنيا والتكاثـر فيها، وتضييع سـاعات العمـر النفيسـة في اللهـث وراءها، حتى يحـل الأجل الذي يقطع هذه الآمال، وتذهب النفس حسرات على ما فرطت في عمرها، وأضاعت من أوقاتها.

يقول ابن قدامة رحمه الله تعالى عن سبب طول الأمل:

(واعلم أن السـبب في طول الأمل شيئان: أحدهما: حب الدنيا، والثاني: الجهل.

أما حب الدنيا؛ فإن الإنسان إذا أنس بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها، ثقل على قلبه مفارقتها، فامتنع قلبه من الفكر في الموت، الذي هو سبب مفارقتها، وكل من كره شيئًا دفعه عن نفسه، والإنسان مشغول بالأماني الباطلة، فيمني نفسه أبدًا بما يوافق مراده من البقاء في الدنيا، وما يحتاج إليه من مال وأهل ومسكن وأصدقاء وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفًا على هذا الفكر، فيلهو عن ذكر الموت، ولا يقدر قربه.

فإن خطر له الموت في بعض الأحوال والحاجة إلى الاستعداد له، سوَّف بذلك ووعد نفسه، وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر قال: إلى أن يصير شيخًا، وإن صار شيخًا، قال: إلى أن يفرغ من بناء هذه الدار، وعمارة هذه الضيعة، أو يرجع من هذه السفرة، فلا يزال يسوف ويؤخر، ولا يحرص في إتمام شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال، وهكذا على التدريج، يؤخر يومًا بعد يوم، ويشتغل بشغل بعد شغل، إلى أن تخطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته.

السبب الثاني: **الجهل**، وهو أن الإنسان يعول على شبابه، ويستبعد قرب الموت مع الشباب، أو ليس يتفكر المسكين في أن مشايخ بلده لو عدوا كانوا أقل من العشر؟ وإنما قلوا لأن الموت في الشباب أكثر،

وإلى أن يموت شيخ قد يموت ألف صبي وشاب، وقد يغتر بصحته، ولا يدري أن الموت يأتي فجأة، وإذا مرض لم يكن الموت بعيدًا، ولو تفكر وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من صيف وشتاء وربيع وخريف، وليل ونهار، ولا هو مقيد بسن مخصوص من شاب وشيخ أو كهل أو غيره، لعظم ذلك عنده واستعد للموت)[١].

خامسًا: الطمع والجشع وعدم القناعة والتكبر على الناس

يزداد طمع الناس وجشعهم وتضعف قناعتهم ورضاهم بما رزقهم الله ﷻ، حينما يتكاثرون في هذه الدنيا الفانية، حيث لا يرضيهم مسكن يسكنهم، ولا طعام يشبعهم، ولا لباس يواريهم، ولا مركب يحملهم، لأن أبصارهم وبصائرهم ترنو إلى من فوقهم وتتكاثر معهم، ولا تبصر من تحتهم، فيزدرون نعمة الله عليهم، ولا يقنعون بما آتاهم الله.

ومن خطورة الطمع وعدم القناعة أن صاحبها يسعى جاهدًا لتكثير ماله، وتوسيع جاهه، ولو بالطرق المحرمة، كأن يداهن المسؤول من أجل منصبه، وأن يتنازل الداعية عن دعوته، أو مبدئه طمعًا في مال أو جاه، أو أن يحسد الأخ أخاه على نعمة الله عليه، أو أن يذل المرء نفسه لغير الله تعالى رغبة في دنيا فانية. قال ﷺ: «**شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس**»[٢].

---

(١) مختصر منهاج القاصدين ص٣٦٧، ٣٦٨.

(٢) الحلية لأبي نعيم ٣/ ٢٥٣ والحاكم في مستدركه وصححه ٤/ ٣٢٤.

عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**طوبى لمن هدي إلى الإسلام، وكان عيشه كفافًا وقنع**»(١)، وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنعه الله بما آتاه**»(٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر، أترى كثرة المال هو الغنى؟**» قلت: نعم يا رسول الله، قال ﷺ: «**فترى قلة المال هو الفقر؟**» قلت: نعم! يا رسول الله، قال ﷺ: «**إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب**» الحديث(٣).

وتلك حقيقة لا مرية فيها؛ فكم من غني عنده من المال ما يكفيه وولده ولو عمر ألف سنة؛ يخاطر بدينه وصحته، ويضحي بوقته يريد المزيد! وكم من فقير يرى أنه أغنى الناس؛ وهو لا يجد قوت غده! فالعلة في القلوب: رضىً وجزعًا، واتساعًا وضيقًا، وليس في الفقر والغنى(٤).

والقناعة لا تعني أن لا يكسب المرء في هذه الدنيا، أو لا يتاجر فيها، ويضرب في الأرض بطلب رزقه، بل هذا مطلوب ومرغوب

(١) أحمد ٦، ١٩ والترمذي (٢٢٤٩) وقال: حسن صحيح. وصححه الألباني.
(٢) مسلم (١٠٥٤).
(٣) ابن حبان في صحيحه (٦٨٥).
(٤) انظر مقال (القناعة مفهومها ومنافعها) إبراهيم الحقيل، مجلة البيان عدد (١٤١).

فيه لإعفاف النفس ومن تعول أو صرفها في وجوه الخير، ولكن القناعة تأبى أن تلج الدنيا في القلب، وتملك على الإنسان نفسه حتى يمنع حق الله ﷻ فيها أو أن يتكاسل عن طاعة الله ويفرط في الفرائض ويرتكب المحرمات من ربا ورشوة وغش، وكسب خبيث حفاظًا على هذه الدنيا أو تنمية لها.

كما تأبى القناعة على جامع المال من أن يحسد أخاه المسلم على نعمة الله ﷻ، أو أن يتسخط بنصيبه في الدنيا، أو أن ينافق من أجل منصب أو جاه أو مال.

وإن مما يكرس الطمع والجشع ويذهب القناعة ما ذكره الماوردي رحمه الله من الأسباب التي تمنع القناعة بالكفاية، وتدعو إلى طلب الزيادة، وهي على سبيل الاختصار:

١ - منازعة الشهوات التي لا تنال إلا بزيادة المال وكثرة المادة، فإذا نازعته الشهوة طلب من المال ما يوصله إليها، وليس للشهوات حد متناه، فيصير ذلك ذريعة إلى أن ما يطلبه من الزيادة غير متناه، ومن لم يتناه طلبه استدام كده وتعبه، فلم يف التذاذه بنيل شهواته بما يعانيه من استدامة كده وأتعابه، مع ما قد لزمه من ذم الانقياد لمغالبة الشهوات، والتعرض لاكتساب التبعات، حتى يصير كالبهيمة التي قد انصرف طلبها إلى ما تدعو إليه شهواتها فلا تنزجر عنه بعقل، ولا تنكف عنه بقناعة.

٢- أن يطلب الزيادة ويقتني الأموال ليدخرها لولده، ويخلفها لورثته، مع شدة ضنه على نفسه، وكفه عن صرف ذلك في حقه، إشفاقًا عليهم من كدح الطلب وسوء المنقلب، وهذا شقي بجمعها مأخوذ بوزرها، قد استحق اللوم من وجوه لا تخفى على ذي لب، منها:

أ- سوء ظنه بخالقه: أنه لا يرزقهم إلا من جهته.

ب- الثقة ببقاء ذلك على ولده مع نوائب الزمان ومصائبه.

ج- ما حرم من منافع ماله وسلب من وفور حاله، وقد قيل: إنما مالك لك أو للوارث أو للجائحة؛ فلا تكن أشقى الثلاثة.

د- ما لحقه من شقاء جمعه، ونالـه من عناء كده، حتى صار ساعيًا محرومًا، وجاهدًا مذمومًا.

هـ- ما يؤاخذ به من وزره وآثامه، ويحاسب عليه من تبعاته وإجرامه، وقد حكي أن هشام بن عبدالملك لما ثقل بكى ولده عليه، فقال لهم: جاد لكم هشام بالدنيا وجدتم عليه بالبكاء، وترك لكم ما كسب، وتركتم عليه ما اكتسب، ما أسوأ حال هشام إن لم يغفر الله له! وقال رجل للحسن رحمه الله: إني أخاف الموت وأكرهه، فقال: إنك خلفت مالك، ولو قدمته لسرك اللحاق به.

٣- أن يجمع المال ويطلب المكاثرة، استحلاءً لجمعه، وشغفًا باحتجانه؛ فهذا أسوأ الناس حالًا فيه، وأشدهم حِرمانًا له، قد توجهت إليه سائر الملاوم، وفي مثله قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤][1].

سادسًا: آفة الترف وما ينشأ عنها من الترهل والوهن والفسق وعدم تحمل المشاق وترك الجهاد والدعوة إلى الله ﷻ وضعف النفوس والاستسلام للأعداء.

الترف هو مجاوزة الاعتدال في النعم، والإكثار منها على وجه التوسع والتكاثر، والسعي لبلوغ الغاية في حاجات لذات الجسد من مأكل ومشرب أو مسكن أو مركب أو لباس أو نكاح.

والمتأمل في كتاب الله ﷻ وما ورد فيه من ذكر للترف والمترفين يجد أنه لم يذكر إلا على وجه الذم، وأن ترف المترفين كان سببًا في إعراضهم عن الحق الذي أدى إلى هلاكهم في الدنيا والآخرة، قال الله ﷻ: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٥]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦].

(١) أدب الدنيا والدين (باختصار) ٣١٧- ٣٢٤.

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية:

(والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين، الذين يجدون المال، ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة والراحة والسيادة، حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة، وتستهر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأعراض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادًا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها.

ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها، فتهلك وتطوى صفحتها)[1].

وبين الرسول ﷺ أثر الترف في الضعف أمام الأعداء وترك جهادهم والاستسلام لهم في قوله ﷺ: «**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة على قصعتها**» قال قائل: ومن قلة نحن يومئذ. قال ﷺ: «**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن**» فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال ﷺ: «**حب الدنيا، وكراهية**

(١) في ظلال القرآن الآية (١٦) من سورة الإسراء.

الموت»[١]، قال في عون المعبود في شرحه للحديث: (قال في المجمع: أي يقرب أن فرق الكفر وأمم الضلال تداعى عليكم، أي يدعو بعضهم بعضًا إلى الاجتماع لقتالكم وكسر شوكتكم ليغلبوا على ما ملكتموه من الديار كما أن الفئة الآكلة يتداعى بعضهم بعضًا إلى قصعتها، التي يتناولونها من غير مانع... (ومن قلة) أي ذلك التداعي لأجل قلة نحن... قوله ﷺ: (لينزعن) أي ليخرجن، (المهابة) أي الخوف والرعب (وليقذفن الوهن) أي الضعف، وكأنه أراد بالوهن ما يوجبه. ولذلك فسره بحب الدنيا وكراهة الموت. قال الطيبي: وهما متلازمان، فكأنهما شيء واحد يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين من العدو المبين)[٢].

قال النحاس: (اعلم أيها الراغب عما افترض عليه من الجهاد، الناكب عن سنن التوفيق والسداد، ليت شعري هل سبب إحجامك عن القتال؟ واقتحامك معارك الأبطال، وبخلك في سبيل الله بالنفس والمال إلا طول أمل، أو خوف هجوم أجل، أو فراق محبوب من أهل ومال، أو ولد وخدم وعيال، أو أخ شقيق أو قريب عليك شفيق، أو ولي كريم أو صديق حميم، أو حب زوجة ذات حسن وجمال، أو جاه منيع، أو منصب رفيع، أو قصر مشيد أو ظل مديد، أو ملبس بهي أو مأكل هني؟!! ليس غير هذا يقعدك عن الجهاد، ولا سواه

(١) أبو داود (٤٢٩٧)، وأحمد ٥/ ٢٧٩ وصححه الألباني في صحيح الجامع (٨١٨٣).
(٢) عون المعبود ١١/ ٢٧٢، ٢٧٣.

يبعدك عن رب العباد، وتالله ما هذا منك أيها الأخ بجميل، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[التوبة: ٣٨](١).

وقد انتشر اليوم ليس في حياة العامة فحسب، بل في حياة كثير ممن ينتسب إلى العلم والدعوة - وما أبرئ نفسي - وذلك بصورة تنذر بالخطر وتوجب علينا اليقظة والحذر، وللتدليل على ذلك أسوق بعض ما ذكره الأستاذ فيصل البعداني عن آثار ومظاهر الترف في حياة بعض الدعاة، ومنها:

- (عدم الحرص على الطاعة، والتواني عن القيام بما يقرب في الآخرة، سواء أكان ذلك فيما يتعلق بذات الشخص كصلاة النفل وصيام التطوع، أو فيما يتعلق بشؤون الدعوة، إذ تكثر عند التنفيذ المشاغل، وتتعدد المبررات للتقاعس عن العمل أو التأخر في أدائه، وفي المقابل توجد - لدى ذلك الصنف - عجلة في تحصيل وسائل الترف، وسرعة في تحقيق مطلوبات النفس وشهواتها.

- تتبع أقوال أهل العلم للأخذ بالأيسر منها، ويرجع ذلك إلى أن كثرة النعم تقود إلى الدعة والراحة، وتلك تقود إلى اقتحام سبيل

(١) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ص١١٣.

الشهوات والانغماس في الملذات، التي قد لا يجد العبد متنفسًا له فيما أحل الله، فيقرر الأخذ بما يراه حرامًا، ولكن لكي يزيل الحرج عن نفسه، ويدفع عنه لوم الآخرين - إن وجد - يقوم بتتبع أقوال أهل العلم في الأمر الذي قرر إتيانه إلى أن يجد له عالمًا في القديم أو الحديث يقول بجواز فعله، فيفرح به ويبدأ بإعلانه ونشره، لا اعتقادًا بصحة ذلك القول والرغبة في إذاعته، ولكن حبًّا في رفع الحرج عن النفس، نظرًا لموافقة ذلك القول لما قد عزمت نفسه على فعله.

- العجب بالنفس والتكبر على الآخرين، وهاتان الصفتان موجودتان لدى بعض الدعاة، نتيجة عيشهم في أوساط النعم، ولكنهم لا يتمكنون - في الغالب - من الشعور بها، إلا من أدام منهم النظر في حاله، أو نبهه عليها آخر ممن وفقهم ربهم وصانهم من الوقوع فيها، وذلك راجع إلى كونها تبدأان في النفوس كخيط رفيع جدًّا لا يرى ثم يكبر شيئًا فشيئًا حتى يبين ويتضح، ويكون الداعية عند ذلك قد غفل، وخف مبدأ محاسبته لنفسه.

- عدم قيام المترف بحاجاته الذاتية والاجتماعية، التي يتمكن من القيام بها، والمجيء بالخدم رجالًا ونساء، لكي يقوموا بذلك من غير حاجة، وإنما رغبة منه في ترفيه نفسه، وتقديم الراحة لأهله وأولاده، وحبًا منه في التفاخر والتباهي والظهور بمظهر المتميز أمام بقية أفراد المجتمع.

- كثرة استخدام وسائل الترويح عن النفس من مزاح وألعاب ونزهة وزيارات كثيرة تخرج بالترويح عن الأمر الذي شرع له، وتصبح في حياة كثير من الناس كأنها هي الأصل، والجد هو الفرع.

- ضياع الأوقات، وانتشار البطالة في حياة بعض من الدعاة والمصلحين، حيث تكثر ساعات نومهم، ويتتابع فناء أعمارهم دون أن يقضوا شيئًا منها في أمر ينفعهم في دينهم ودنياهم.

- الإفراط في تناول الطعام والشراب، وتوفير متطلبات النفس مما لذ وطاب، مما جعل جم غفير من الناس - دعاة وغيرهم - يعانون بسبب ذلك من السمنة وكثير من الأمراض الناشئة عن التخمة، وكذلك الإفراط في زخرفة البيوت والأثاث والأواني الفاخرة.

- جعل المال في الملابس الراقية، والاكتفاء بلبس الجديد الفاخر، حتى كثرت بسبب ذلك الملابس غير المستخدمة في المنازل، وتكدست مع وجود تنوع في الاستعمال، حسب تعدد فصول العام، واختلاف أوقات اليوم، ويبرز الترف في هذا الجانب لدى النساء بصورة واضحة.

- صرف الأموال الكثيرة في السيارات والحرص على ضخامتها وتعددها، حسب أحجامها وأنواعها، وتسليم بعضها لمراهقين يستخدمونها- غالبًا - في غير ما وضعت لها.

- الاستكثار من وسائل الزينة والاعتناء الزائد بالنفس، والإفراط في التدهن والتطيب والترجيل للشعر، ونحو ذلك من أمور الناس، حتى إن بعضهم ليزيد إنفاقه على زينته وبعض مظاهر الترف الأخرى على دخله، مما يضطره إلى الاقتراض.

- كون المترفين أكثر عرضة للفتور والتراجع عما هم عليه من خير ودعوة، أمام الفتن التي تلازم في الغالب الدعاة، والعقبات التي تعترض مسيرة الدعوة. والمترف من الدعاة أقرب من غيره إلى التنازل عن مبادئه وثوابته، بل إن بعضهم قد يتحول أمام المغريات والخوف من أفول الترف وانصراف الملذات إلى الوقوف في وجه الدعوة، وكيل التهم لها، وإثارة الشبه حولها، ومحاولة الوقيعة بين حملتها.

- إن الداعية المترف متعود على الإنفاق على خواصه بكثرة واسعة؛ فإذا أوكل إليه شيء من أموال الدعوة فعل بها كما يفعل بماله غالبًا، والأصل أنها لا تصرف إلا في الأمور الضرورية والحاجية، وما زاد عن مكان فالمكان الآخر في أمس الحاجة إليه.

- إن الداعية المترف أقل اهتمامًا بدينه ودعوته والقيام بها من غيره، وذلك لأنه عقد همته للشهوات والتلذذ بالنعم والملذات وطلب أسباب ذلك.

- إن الداعية المترف أقل إفادة للمدعوين من غيره، وذلك لأن انغماسه في النعيم وتحصيل أسبابه مانع له من التزود بالعلم الشرعي، مما يعني اكتفاءه بتقديم ما عنده من معلومات، فإذا انتهت بدأ بتكرارها. وهذا من دواعي عدم قبول الناس للمترف.
- الترف من أسباب زوال الدعوات وأفولها، ما لم يبادر كبار الدعاة إلى إصلاح الوضع وتسديد الأمر، لأن انتشار الترف بين مجموعة من الدعاة من غير نكير يؤدي إلى اتساعه وانتشاره بين فئات أخرى، نظرًا لحب النفوس لذلك، واتخاذ كل فئة لمن قبلها قدوة، مما يؤدي إلى ضعف الأنشطة في البداية نتيجة فتور بعض الدعاة، وبعد ذلك يبدأ تساقط الفاترين مجموعة بعد مجموعة، نتيجة الانهماك بزخرف الحياة والتشاغل بزينتها)[1].

سابعًا: كثرة الهموم والغموم والشعور بالاكتئاب وفقدان السعادة

يظن بعض الناس أن أهل الدنيا المكاثرين فيها المترفين فيها يعيشون في سرور وسعادة؛ ولكن الحقيقة أن كثيرًا من الراكنين إلى الدنيا الغافلين عن الآخرة، يعيشون حياتهم في قلق وكآبة وهم، وهذا ما أشار إليه الرسول ﷺ في قوله: «**تعس عبدالدينار وعبدالدرهم وعبدالخميصة**»[2]، وكذلك قوله : «**من كانت الآخرة همه جعل الله**

(١) مجلة البيان العدد (٨٥) باختصار وتصرف يسير.
(٢) سبق تخريجه.

غناه في قلبه، وجمع عليه شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»[١]، وحال أهل الدنيا يشهد بذلك.

يصف ابن القيم رحمه الله تعالى عذاب أهل الدنيا، فيقول: (إن محب الدنيا أشد الناس عذابًا بها، وهو معذب في دوره الثلاث؛ يعذب في الدنيا بتحصيلها والسعي فيها ومنازعة أهلها، وفي دار البرزخ بفواتها والحسرة عليها، وكونه قد حيل بينه وبين محبوبه على وجه لا يرجو اجتماعه به أبدًا، ولم يحصل له هناك محبوب يعوضه عنه، فهذا أشد الناس عذابًا في قبره، يعمل الهم والغم والحزن والحسرة في روحه ما تعمل الديدان وهوام الأرض في جسده، والمقصود: أن محب الدنيا يعذب في قبره ويعذب يوم لقاء ربه.

قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٥٥].

قال بعض السلف: (يعذبهم بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها)[٢].

ويقول في موطن آخر:

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) عدة الصابرين ص٣٥٥، ٣٥٦.

(فالزاهد أروح الناس بدنًا وقلبًا؛ فإن كان زهده وفراغه في الدنيا قبوله في إرادة الله والدار الآخرة، بحيث فرغ قلبه لله، وجعل حرصه على التقرب إليه، وشحه على وقته أن يضيع منه شيء في غير ما هو أرضى لله وأحب إليه، كان من أنعم الناس عيشًا، وأقرهم عينًا، وأطيبهم نفسًا، وأفرحهم قلبًا، فإن الرغبة في الدنيا تشتت القلب وتبدد الشمل، وتطيل الهم والغم والحزن، فهي عذاب حاضر يؤدي إلى عذاب منتظر أشد منه، وتفوت على العبد من النعم أضعاف ما يروم تحصيله بالرغبة في الدنيا.

قال الإمام أحمد: حدثنا الهيثم بن جميل حدثنا محمد يعني ابن مسلم عن إبراهيم يعني ابن ميسرة عن طاوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، وإن الرغبة في الدنيا تطيل الهم والحزن**»(١)، وإنما تحصل الهموم والغموم والأحزان من جهتين أحدهما: الرغبة في الدنيا والحرص عليها، والثاني: التقصير في أعمال البر والطاعة)(٢).

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى عند قوله تعالى عن المنافقين والكافرين: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ

(١) رواه أحمد في الزهد ص١٦، وابن أبي الدنيا (١٣١)، والحديث ضعيف.
(٢) عدة الصابرين ص٤٠٦.

جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٨]، (وقد قيل إن قوله: ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ﴾ إشارة إلى ما هو لازم لهم في الدنيا والآخرة من الآلام النفسية غمًّا وحزنًا وقسوة وظلمة قلب وجهلًا، فإن للكفر والمعاصي من الآلام العاجلة الدائمة ما الله به عليم، ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يطيبون عيشهم إلا بما يزيل عقولهم، ويلهي قلوبهم، من تناول مسكر، أو رؤية مُلهٍ، أو سماع مطرب، ونحو ذلك[١].

ويتحدث المسلم النمساوي محمد أسد (ليوبولد فايس سابقًا) عن المجتمع الغربي وقصة إسلامه، قال: (كنت مسافرًا في سنة (١٩٢٦م) في قطار برلين تحت الأرض، وكان معي زوجتي وهي رسامة وذكية جدًّا، وقد لاحظت أن كل زملائي في هذه الدرجة (درجة أولى) مكتئبون، تعلو وجوههم كآبة، ويغشاها قتام، وكان ما يحملونه من متاع، ويلبسونه من ملابس، ويتحلون به من خواتم، يدل على أنهم من الطبقة الثرية، وكان الزمن زمن الرخاء، الذي أعقب سنوات التضخم في أوروبا، فأنا تحيرت وفكرت، وقلت: لماذا هذه الكآبة؟ وما سبب هذا الحزن العميق الذي هم غارقون فيه؟ ولفت نظر زوجتي، وقلت: يا عزيزتي، انظري وجوه هؤلاء القوم! ألا تشعرين بأنهم تعلوهم الكآبة؟ قالت: نعم، إنهم جميعًا يبدون وكأنهم يعانون آلام الجحيم!!

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم ص٢١.

وأردت أن أفسر هذه الظاهرة فلم أنجح، ورجعت إلى مكتبي فإذا المصحف أمامي، فأخذته من غير قصد، وفتحته من غير اختيار، فإذا سورة التكاثر تطالعني، حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، وكنت مترددًا هل أدخل في الإسلام أو لا أزال أشرحه وأعرضه بالأسلوب العلمي العصري كما كان شأني؟ ولما قرأت هذه السورة قلت: والله إن هذا الكلام لا يأتي به إلا من ينزل عليه الوحي!! هذا الكلام لا يقوله بشر قبل ثلاثة عشر قرنًا، إنه يصور المجتمع الغربي المعاصر الراقي بقسماته ومخايله، ويتنبأ بالعذاب النفسي الذي يتميز به هذا القرن العشرون، على الرغم من رقيه الصناعي والحضاري، ويعين مصدر هذا العذاب والشقاء، الذي كان يعانيه ركاب القطار، ويعانيه المجتمع الأوروبي بشكل عام، وهو داء التكاثر لا غير، فمن ساعتي خرجت إلى صديق لي مسلم (هندي) وقلت: يا أخي: ماذا يفعل من يريد أن يدخل الإسلام؟ قال: يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فنطقت بالشهادتين وأصبحت مسلمًا)[1].

(١) عن مقال (ألهكم التكاثر) د. محمد العبدة موقع الإسلام اليوم.

الفصل الخامس

ذكر بعض الأسباب التي تقي بإذن الله تعالى من آفة التكاثر

إن مما يقي من آفة التكاثر في الدنيا، ويقوي هم الآخرة في النفوس، التعرف على الأضرار الناجمة عن التكاثر، التي سبق ذكرها؛ ففيها الدافع القوي لمن وفقه الله ﷻ إلى الحذر الدائم من الركون إلى الدنيا، والاستعداد لرحلة الخلود الطويلة، والتمهيد للمستقبل الأبدي السرمدي، ومع ذلك فيحسن ذكر بعض الأسباب المعينة على تدارك زمن المهلة، والانتباه من رقدة الغفلة، فإن انضم إلى ذلك صدق العزيمة وعلو الهمة، نفعت بإذن الله ﷻ، نسأله سبحانه أن ينفعنا بها، ومن هذه الأسباب ما يلي:

١ - دعاء الله ﷻ واللجوء إليه والاستعانة به سبحانه في التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود

إن الخير كله والتوفيق كله بيد الله ﷻ، فما أفلح عبد ونجا من فتنة الدنيا وأناب إلى الآخرة إلا بتوفيق الله سبحانه وإعانته، وعلى هذا فإن سؤال الله ﷻ والتضرع إليه سبحانه، واللجوء إليه من أعظم الأسباب وأنفعها للعبد في توفيقه وفلاحه، والعبد هالك ومخذول إن وكل إلى نفسه أو إلى عمله الضعيف.

وهـذا سـيد العارفين والخائفـين والراجين محمـد ﷺ يقول: «**لن يدخل الجنة أحدًا عمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «**ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته**»(١).

والأدعية الواردة في سؤال التوفيق إلى عمل الآخرة ونعيمها كثيرة، منهـا قوله ﷺ: «**اللهم أصلح لي ديني الذي هـو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي ، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر**»(٢)، ومنها قوله ﷺ: «**ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا مبلغ علمي**»(٣)، ومن الأدعية النافعـة في هذا المقـام قوله ﷺ في دعائه بعد التشـهد الأخير: «**اللهم إني أعـوذ بك من الجبن، وأعوذ بـك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر**»(٤)، وقوله ﷺ: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا**»(٥)، وفي رواية أخرى (**كفافًا**).

قال في شرح مسـلم للنووي: (قال أهل اللغة العربية: القوت ما يسـد الرمـق، وفيه فضيلة التقلـل من الدنيا، والاقتصـار على القوت منها، والدعاء بذلك)(٦).

---

(١) البخاري (٥٦٧٣)، في الرقاق ومسلم (٢٨١٦).
(٢) مسلم (٢٧٢٠) في الذكر والدعاء.
(٣) جزء من دعاء رواه الترمذي وحسنه (٣٤٩٧) كتاب الدعوات.
(٤) البخاري (٢٨٢٢).
(٥) مسلم (١٠٥٥).
(٦) شرح النووي ٧/ ١٤٦.

٢- العلم بالشرع والبصيرة في الدين ومعرفة الله ﷻ بأسمائه وصفاته الحسنى

كلما كان العبد أعلم بالله سبحانه، وبأسمائه وصفاته، وبأحكامه وشريعته، وبالطرق الموصلة إلى رضاه، كان أحرص على ما يقرب إلى الله سبحانه، وكان أكثر استعدادًا للآخرة، وأعرف بما يرضي الله ﷻ فيفعله، وما يصده عن الله والدار الآخرة فيتجنبه ويحذره، وهذا من أعظم فوائد العلم الشرعي والبصيرة في الدين، إذا صاحب هذا العلم قوة في العمل والإرادة والعزيمة على ترجمة العلم إلى العمل.

وفي هذا الشأن يقول الإمام ابن القيم رحمه الله (السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره، ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية. فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك، فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل. فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع للماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها؛ فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق، ومعاطبها.

وبالقوة العملية يسير حقيقة، بل السير هو حقيقة القوة العملية، فإن السير هو عمل المسافر، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها أبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها، فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه على عاتقه، ويشمر مسافرًا في الطريق، قاطعًا منازلها منزلة بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى، واستشعر القرب من المنزل، فهانت عليه مشقة السفر، وكلما سكنت نفسه من كلال السير، ومواصلة الشد والرحيل، وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهمة.

فهو يقول: يا نفس أبشري، فقد قرب المنزل، ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرت وواصلت المسير وصلت حميدة مسرورة جذلة، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المفازة؛ فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين، فإن استصعبت عليه فليذكرها ما أمامها من أحبابها، وما لديهم من الإكرام والإنعام، وما خلفها من أعدائها، وما لديهم من الإهانة والعذاب وأنواع البلاء... ولا يوحشه انفراده في طريق سفره، ولا يغتر بكثرة المنقطعين... وليعلم أن هذه الوحشة

لا تـدوم، بل هي من عوارض الطريق... ولا يسـتوحش بما يجده من كثافـة الطبع، وذوب النفس، وبطء سـيرها، فكلما أدمن على السـير، وواظـب عليه غدوًّا ورواحًا وسـحرًا قرب من الدار، وتلطفت تلك الكثافة، وذابت تلك الخبائث والأدران، فظهرت عليه همة المسافرين وسيماهم، فتبدلت وحشته أنسًا وكثافته لطافة وبدنه طهارة.

فمـن الناس من يكـون له القـوة العلمية، الكاشـفة عن الطريق ومنازلهـا وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكـون هذه القوة أغلب القوتـين عليه، ويكـون ضعيفًا في القوة العملية: يبـصر الحقائق، ولا يعمـل بموجبها، ويرى المتالـف والمخاوف والمعاطـب ولا يتوقاها، فهـو فقيـه مـا لم يحـضر العمل، فـإذا حضر العمـل شـارك الجهال في التخلـف، وفارقهـم في العلـم، وهذا هـو الغالب على أكثـر النفوس المشتغلة بالعلم، والمعصوم من عصمه الله، ولا قوة إلا بالله.

ومـن الناس من تكون له القـوة العملية الإرادية، وتكون أغلب القوتـين عليـه، وتقتـضي هـذه السـير والسـلوك والزهـد في الدنيـا، والرغبة في الآخرة، والجد والتشـمير في العمل، ويكون أعمى البصر عنـد ورود الشـبهات في العقائد والانحرافـات في الأعمال والأقوال والمقامات، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشـهوات، فداء هذا من جهله، وداء الأول فسـاد إرادتـه، وضعف عقله، وهذا حال

أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم، بل على طريق الذوق والوجد والعادة...

ومن كانت له هاتان القوتان استقام له سيره إلى الله، ورجي له النفوذ، وقوي على رد القواطع والموانع بحول الله وقوته، فإن القواطع كثيرة، شأنها شديد لا يخلص من حبائلها إلا الواحد بعد الواحد، ولولا القواطع والآفات لكانت الطريق معمورة بالسالكين، ولو شاء الله لأزالها، وذهب بها، ولكن الله يفعل ما يريد، والوقت كما قيل: سيف فإن قطعته وإلا قطعك.

فإذا كان السير ضعيفًا والهمة ضعيفة، والعلم بالطريق ضعيفًا والقواطع الداخلة والخارجة كثيرة شديدة، فإنه جهد البلاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء، إلا أن يتداركه الله برحمة منه من حيث لا يحتسب، فيأخذ بيده، ويخلصه من أيدي القواطع. والله ولي التوفيق)[1].

٣- قراءة القرآن وتدبره والإكثار من ذكر الله تعالى وإدامته:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ - ٥٨].

(١) طريق الهجرتين ١/ ٢٨٥ نشر دار ابن القيم تحقيق عمر بن محمد أبو عمرو.

فالقـرآن الكريم أكبر المواعظ وأنفعها للقلـب، وذلك لمن تدبره ووعاه، قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

والذي لا يتعظ بمواعـظ القرآن، فإنه مريض القلب، ومن باب أولى ألا يتعظ بغيره، فالإكثار من قراءة القرآن وتدبر معانيه ومواعظه العظيمة من أكبر الأسباب الجالبة لإنشاء هم الآخرة والاستعداد لها؛ لأن القـرآن الكريـم لا تكاد تخلو صفحة مـن صفحاته من ذكر اليوم الآخر، وما فيه من الأهوال العظيمة والحساب والجزاء والجنة والنار، كما أنه يتضمن ذكر الدنيا وفنائها والتحذير منها.

والحاصـل أن الحياة مع القرآن ومواعظـه ووعده ووعيده يجعل قلـب المؤمن في اسـتعداد دائم متصل بهـذا اليوم المشـهود، كما يجعله حذرًا من الدنيا وفتنتها ومتاعها الزائل، وإن مما يعين على تدبر القرآن والتأثر بمواعظه، أن يكون ذلك في الصلاة، وبالذات في صلاة الليل الآخر، قال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمـران: ١١٣]، وقـال تعـالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمـل: ٦]، وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

ومما يلحق بقراءة القرآن وتدبره كثرة ذكر الله تعالى في الصباح والمساء، وفي أحوال اليوم والليلة، لما في ذلك من تطرية القلوب وعلاج لقسوتها، فإذا رق القلب بذكر الله تعالى أثرت فيه مواعظ الآخرة، وامتلأ بحب الله ﷻ، وما أعد لأوليائه في الآخرة، وعكس ذلك القلب القاسي البعيد عن ذكر الله ﷻ.

روى ابن أبي الدنيا: أن رجلًا قال للحسن: يا أبا سعيد، أشكو إليك قسوة قلبي، فقال «أدبه بالذكر»[١].

يضاف إلى ذلك ما تشتمل عليه بعض الأذكار من ذكر للآخرة والمصير إليها، والاستعاذة بالله من شرورها ومن عذاب النار، وما فيها من سؤال الجنة ونعيمها؛ كل ذلك مما يذكر بالآخرة، ويجعل العبد في منأى عن الغفلة والنسيان ما دام لسانه رطبًا بذكر الله تعالى.

٤- الإكثار من ذكر الموت وزيارة القبور والمرضى وتشييع الجنائز

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أكثروا من ذكر هاذم اللذات: الموت**»[٢]، وعن أبي هريرة أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكركم الموت**»[٣]،

(١) الرقة والبكاء لابن أبي الدنيا ص٧٢.
(٢) الترمذي في الزهد (٢٣٠٧).
(٣) الترمذي في الزهد (٢٣٠٨) وقال: حسن غريب. وصححه الألباني.

ففي الحديثين السابقين إشارة إلى أثر الموت وتذكره في الاستعداد للآخرة، وعدم الركون إلى الدنيا، وعدم الاغترار بلذاتها ومتعها، فإنها زائلة عن قريب بهاذم اللذات ومفرق الجماعات.

ومما يذكر بالموت، حضور تغسيل الموتى وتشييع الجنائز، وزيارة المقابر، والسلام على الموتى، والدعاء لهم، ورؤية القبور المحفورة، وتمثل الإنسان نفسه فيها، وهو لا شك سيرقد فيها في يوم من الأيام.

كما أن في زيارة المرضى الذين أقعدهم المرض، وقربهم من الآخرة مما يذكر أيضًا بالموت والاستعداد للآخرة بتدارك الصحة والعافية، قبل أن يحال بين العبد وبين ذلك بالمرض أو الموت.

إنه لا شيء في الدنيا أفظع ولا أخطر من ساعة الاحتضار؛ ولذلك فالحضور عند المحتضرين من أسباب رقة القلب وإنابته إلى الله والدار الآخرة.

ويصف ابن الجوزي رحمه الله تعالى ساعة الاحتضار، فيقول:

(من أظرف الأشياء إفاقة المحتضر عند موته، فإنه ينتبه انتباهًا لا يوصف، ويقلق قلقًا لا يحد، ويتلهف على زمانه الماضي، ويود لو ترك كي يتدارك ما فاته، ويصدق في توبته على مقدار يقينه بالموت، ويكاد يقتل نفسه قبل موتها بالأسف، ولو وجدت ذرة من تلك الأحوال في

أوان العافية حصل كل مقصود من العمل بالتقوى، فالعاقل من مثل تلك الساعة وعمل بمقتضى ذلك).[١]

ويصف الأستاذ إبراهيم السكران حفظه الله تعالى حقيقة الموت فيقول:

(حين يتمعن الإنسان في هذه الحقيقة الكبرى، حقيقة الموت؛ تسري به سلسلة التساؤلات إلى هذه المفارقة التي نعيشها يوميًّا؛ أعني التناقض بين العقيدة والسلوك، إذا كنا نؤمن فعلًا بأن لحظة توديع الدنيا قريبة منا، قريبة منا جدًّا؛ إنها لحظة بالأبواب، إنها على طرف الثمام، وقد أخذت أعدادًا ممن ساكنونا وآكلونا وناقشونا وزاملونا ودرسونا؛ فكيف يا ترى نغفل ونحن نرى أخبار الموتى لا تتوقف؟ وقد أشار القرآن إلى هذه المفارقة بين قرب الأجل في مقابل استمرار الغفلة، فقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١].

وأخذت مرة أتأمل أسباب هذه الإشكالية في كتاب الله، وأحاول البحث عن موقف القرآن من هذه العلاقة، فوجدت ثلاثة مشاهد صوَّر القرآن تفاصيلها، تكشف سرًّا من أسرار المشكلة، ألا وهو مشكلة التأجيل.

---

(١) صيد الخاطر ص١٤٦.

فهذه الخطايا التي لا زلنا نواقعها لا تجدنا غالبًا مخططين للاستمرار عليها، وإنما نقول في أنفسنا إنها مجرد فترة يسيرة وسنصحح أوضاعنا جذريًّا، لكن الزمان يتفارط، وينسل الوقت من بين أيدينا ونحن لا نشعر، حتى نتفاجأ بملك الموت واقف ليأخذ أرواحنا في الساعة المقدرة... أرأيت؟ إنه الذهول عن الحقائق الكبرى تحت غمامة التأجيل..

أخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يسألون الله أن يرجعهم، ويعاهدونه أن يعملوا الأعمال الصالحة التي أجلوها، ولكن هيهات، لقد فات الأوان، يقول تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠].

أمامنا اليوم فرصة للعمل الصالح قبل أن تأتي هذه الساعة القريبة المفاجئة، التي لن تنفع فيها التوسلات بالعودة لزمان العمل..

وأخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يسألون الله فسحة زمنية يسيرة، ليتصدقوا، ولكن بعد ماذا؟ بعد أن فات الأوان؟! يقول تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون: ١٠ - ١١].

وهـا نحن الآن في زمـن إمكانية التصدق، فهل سـنتردد في قرار النفقـة حتى تأتي تلك السـاعة التي نبدي فيها الاسـتعداد للتصدق، ولكن بعد فوات الأوان؟!

وأخبرنا كتاب الله عن فئام من الناس حين يحضرهم الموت يعلنون التوبة ويسـتغفرون الله، ولكن هل هذا هو وقت التوبة والاستغفار؟ يقول تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

لا زلنا الآن في السـاعات الأخيرة التي تسبق إغلاق باب التوبة، والتوبـة إلى الله تحتاج قرارًا فوريًّا عاجلًا، قرار لا يحتمل التأجيل ثانية واحدة، قرار يجب أن يدشن الآن، قبل أن تفوت الفرصة..

هذه المشـاهد الثلاثة التي ذكرها القرآن عـن أحوال المحتضرين وأمنياتهم، من أشد المشاهد زلزلة لمشاعر المؤمن الموقن بلحظة الموت وقربها.. وخصوصًا إذا وضع نفسـه في هذه المشاهد، فتخيل كيف لو كان هو نفسـه يسأل الله عند الاحتضار أن يعود للدنيا ليعمل صالحًا، أو يسـأل الله أن يعود للدنيا ليتصدق ويكون من الصالحين، أو يسأل الله عنـد الاحتضـار أن يتوب عليه ويغفر لـه، وفي كل هذه الأمنيات يواجـه بالرفض؛ لأنها دعوات تجـاوزت الموعد النهائي للقبول، وقد كان يمكنه ذلك لو بادر قبل هذه اللحظة..)[1].

(١) ذهول الحقائق موقع المسلم.

٥- محاسبة النفس في تقصيرها والتفكر في حقيقة الدنيا وزوالها، والآخرة ودوامها

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

وقال سبحانه: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وعن ثابت بن حجاج قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم، وزنوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر ﴿يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١٨]»[1].

إن من أقوى الأسباب المعينة بإذن الله تعالى على تدارك العمر والحذر من الدنيا والتكاثر فيها وتذكر الآخرة والاستعداد لها محاسبة النفس ومجاهدتها، وتدارك العمر القصير قبل حلول الأجل، والنظر في سرعة زوال الدنيا وفنائها، والتفكر في الآخرة وبقائها.

---

(١) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا ص٣٣.

ويبين ابن القيم رحمه الله تعالى بعض ما يعين العبد على المحاسبة فيقول:

(ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدًا، إذا صار الحساب إلى غيره، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غدًا، ويعينه عليه أيضًا معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سبحانه، وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى، فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم، فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر، ألا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها، وخطراتها وخطواتها، فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة، لاحظ لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز، لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فإضاعة هذه الأنفاس، أو اشتراء صاحبها بها ما يجلب هلاكه: خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلًا، وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠][1].

(١) إغاثة اللهفان ١/ ٨١.

ويتحدث الغزالي رحمه الله تعالى عن إطالة التفكير في الدنيا وفنائها، وأثر ذلك في الاستعداد للآخرة، فيقول:

(ولا يسلم الناس من أهوال يوم القيامة إلا من طال فيها فكره في الدنيا، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد، فمن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنها في الآخرة، ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء تدمع عيناك ويرق قلبك حال السماع ثم تنساه على القرب، وتعود إلى لهوك ولعبك، فما هذا من الخوف في شيء، بل من خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا شيئًا طلبه، فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويحثك على طاعته، وأبعد من رقة النساء خوف الحمقى إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة، فقال أحدهم: استعنت بالله، اللهم سلم سلم، وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم، فالشيطان يضحك من استعاذتهم، كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء وراءه حصن، فإذا رأى أنياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه: أعوذ بهذا الحصن الحصين، وأستعين بشدة بنيانه وإحكام أركانه! فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه، فأنى يغني عنه ذلك من السبع؟!

وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول: لا إله إلا الله صادقًا، ومعنى صدقه ألا يكون له مقصود سوى الله تعالى، ولا

معبود غيره، ومن اتخذ إلهه هواه فهو بعيد من الصدق في توحيده وأمره مخطر في نفسه[١].

ويبقى في هذه الفقرة إتحاف القارئ بنماذج من محاسبة السلف لأنفسهم، وأخرى من حثهم على محاسبة النفس، وما تنطوي عليه من تقصير وتفريط.

أ- عن إسحاق بن إبراهيم أنه سمع سفيان بن عيينة يقول: (قال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أي نفسي، أي شيء تريدين؟ قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا وأعمل صالحًا، قال: قلت: فأنت في الأمنية فاعملي)[٢].

ب- وقال ميمون بن مهران: (لا يكون العبد تقيًّا حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه؛ ولهذا قيل: النفس كالشريك الخوان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك)[٣].

(١) إحياء علوم الدين ٧/ ٢٨١.
(٢) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا، تحقيق عبدالله الشرقاوي وقال: رجاله ثقات ص٣٩.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٠٣.

حـ- وقال الحسـن: (المؤمن قوام على نفسـه، يحاسـب نفسه لله، وإنما خف الحسـاب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شـق الحسـاب يوم القيامة على قـوم أخذوا هذا الأمـر من غير محاسـبة. إن المؤمـن يفاجئه الـشيء ويعجبه، فيقـول: والله إني لأشـتهيك، وإنك من حاجتي، ولكن والله ما من صلـة إليك، هيهات هيهات، حيـل بيني وبينك.. إن المؤمـن أسـير في الدنيا يسـعى في فكاك رقبته، لا يأمن شـيئًا حتى يلقى الله)[1].

وهـذه صـورة من صور المحاسـبة في حـوار مع النفـس الأمارة بالسوء يصورها الشيخ السعدي رحمه الله تعالى، فيقول:

(ويحـك يـا نفـس! كـم بينـي وبينـك في المعاملـة، أنـتِ تريدين هلاكي، وأنا أسـعى لك بالنجـاة، وأنت تحيلين عليَّ بكل طريق يوقع في المضـار والـشرور، وأنا أجتهـد لك في كل أمر مآلـه الخير والراحة والـسرور، فهلمـي يا نفس إلى صلح شريف يحتفـظ كل منا على ما له مـن المـرادات والمقاصد، ونتفق عـلى أمر يحصل بـه للطرفين أصناف المصالح والفوائد.

(١) مصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ٥٠٣ رقم ٣٦٣٥٧. وانظر: صفة الصفوة (٣/ ٢٣٤).

دعيني يا نفس أمضي بإيماني متقدمًا إلى الخيرات، متجرًا فيه لتحصيل المكاسب والبركات، دعيني أتوسل بإيماني إلى من أعطاه أن يتمه بتمام الهداية، وكمال الرحمة، وأكمل ما نقص منه، لعل الله أن يتم عليَّ وعليك النعمة، ولئن تركتني وشأني لم تعترضي عليَّ بوجه من الوجوه؛ لأعطينك كل ما تطلبينه من المباحات، وكل ما تؤمله النفوس وترجوه، ولئن تركتيني وشأني لأوصلنك إلى خيرات ولذات طالما تمناها المتمنون، وطالما مات بحسرتها قبل إدراكها الباطلون.

يا نفس، أما تحبين أن تنقلي من هذا الوصف الدنيء إلى أوصاف النفوس المطمئنة التي اطمأنت إلى ربها، وإلى ذكره، واطمأنت إلى إعطائه ومنعه، واطمأنت في جميع تدبيره، واطمأنت إلى توحيده والإيمان به حتى سلاها عن كل المحبوبات، واطمأنت إلى وعده حتى كانت هي الحاملة للعبد على الطاعات المزعجة له عن المعاصي والمخالفات.

فلا يزال المؤمن مع نفسه في محاسبة ومنافرة حتى تنقاد لداعي الإيمان، وتكون ممن يقال لها يوم القيامة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠][1].

(١) الفتاوى السعدية.

٦- الاعتكاف وترك فضول الاختلاط

إن مما يعين على مجاهدة النفس، وإنشاء همّ الآخرة إحياء سنة الاعتكاف، وخاصة في العشر الأواخر من رمضان، ففي الاعتكاف تحصل للعبد منافع عظيمة منها:

أ- التفرغ للنفس ومحاسبتها، وتفقد أخطائها ومثالبها ومعاصيها في ماضي حياتها، وأثر ذلك في صدق التوبة وتطامن النفس وتواضعها، وذلك عندما يعلم المحاسب لنفسه أنها كلها عورة وضعف وخطيئة.

ومن هذه المعاصي التي يحاسب العبد فيها نفسه حقوق الخلق بداية من حقوق الوالدين والأزواج والأولاد والأقربين إلى حقوق الآخرين وماذا فرط فيها.

ب- الشعور الشديد بالفاقة والفقر إلى الله ﷻ والضرورة القصوى لإعانته سبحانه وإغاثته وتوفيقه، والشعور بخطر الاعتماد على النفس والثقة المفرطة فيها.

جـ- فراغ القلب في الاعتكاف من مشاغل الدنيا ومشكلاتها، وأثر ذلك في ملء القلب بذكر الله ﷻ والإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور.

د- الحياة مع كلام الله ﷻ والعيش مع كتابه العزيز، وما يحوي من ذكر الآخرة وما فيها، وذكر أنبيائه وأوليائه، وأثر ذلك في محبتهم والشوق إلى مصاحبتهم والتأسي بهم، وبما أصابهم في سبيل الله ﷻ وكيف صبروا وصابروا مع ما في القرآن من ذكر الله ﷻ وأسمائه وصفاته، والأجر العظيم في تلاوته والقيام به آناء الليل وأطراف النهار.

هـ- الانقطاع عن الناس وقلة الاتصال بهم وبكلامهم، وأثر ذلك في صفاء القلب وتقبله للمواعظ والزواجر مع ما في ذلك من ترك لآفات اللسان التي قل من يسلم منها.

و- في الاعتكاف نقلة من حياة الترف مع الأهل والأولاد في المساكن المترفة والفرش الناعمة إلى حياة الاعتزال والمسكنة والفراش الخشن والأكل القليل، وهذا بدوره يؤثر في حياة المعتكف ونظرته للدنيا، مع ما يصاحب ذلك من النوم القليل، فكل ذلك يؤدي بإذن الله تعالى إلى تقوية العزيمة وتنشيط النفس؛ لأن النفس تثقل مع كثرة الفضول من الطعام والنوم والكلام والخلطة.

ز- في الاعتكاف وحبس النفس في مكان معين مجال لتربية النفس على الصبر والمصابرة واكتشاف قوة التحمل والصبر عند

النفس، وفي هذا ترويض للنفس وتوطئة لها على النقلات المفاجئة - نسأل الله ﷻ العافية والثبات - كما أن في ذلك تذكرًا للصلحاء المبتلين الذين يمضون في معتقلاتهم الأشهر والسنوات، فيتوجه بالدعاء لهم بالتثبيت وسؤال الفرج لهم.

ح- في الانقطاع عن الأهل والأولاد في المعتكف مع الشوق إليهم؛ تذكير بالموت والانقطاع الطويل عنهم، وهذا بدوره ينعكس على بذل الجهد في صلاح النفس والأهل، لعل الله ﷻ أن يجمع الشمل في جنات النعيم، التي لا ينفد نعيمها ولا يتفرق أهلها.

ك- في الاعتكاف تعود على أعمال فاضلة يحصل فيها التفريط غالبًا عند الكثير كأداء السنن الرواتب، والصف الأول، والطمأنينة في الصلاة، والذكر، وقراءة القرآن لوجود التفرغ التام للعبادة، ولعل المعتكف أن يدوم عليها بعد الخروج من المعتكف.

ومن الأوقات التي يخلو فيها العبد بنفسه، بعيدًا عن الخلق ما قبل غروب الشمس وقبل طلوعها حيث ورد فضيلة هذين الوقتين وفضيلة ذكر الله ﷻ فيها ومحاسبة النفس فيها، وكذلك آخر ساعة من يوم الجمعة، وما يرجى فيها من إجابة الدعاء.

٧- مصاحبة أهل الخير الذين تذكر رؤيتهم وكلامهم الآخرة، والقراءة في سير الزاهدين من السلف:

قال الله ﷻ: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ [الكهف: ٢٨].

هذه وصية الله ﷻ لنبيه ﷺ ولأمته من بعده، وما ذاك إلا لما يكون من أثر الصالحين الذين إذا رُؤوا ذكر الله ﷻ وذكرت الآخرة، وهذا واقع ومجرب، فما أن يعيش المسلم بين أهل الخير ويستمع إلى مواعظهم ويرى سمتهم وأخلاقهم ويقرأ في كتبهم ويطلع على زهدهم وسيرتهم إلا ويتأثر بهم، ويتأسى بفعالهم الطيبة، وتبقى الآخرة في ذهنه دائمًا، والعكس من ذلك فيمن يصاحب أهل الدنيا الغارقين في لججها، والغافلين عن النبأ العظيم، حيث يظهر أثر هذه المصاحبة في قسوة القلب ونسيان الآخرة، وما يترتب على ذلك من ضعف الاستعداد لها أو عدمه. وإن هذا الأمر ليتأكد في زماننا اليوم أكثر من أي وقت مضى. هذا الزمان الذي كثرت فيه الفتن وتزينت فيه الدنيا لأهلها، وتنافس الناس وتكاثروا فيها، وتجمعوا حول حطامها، وكان جل حديثهم فيها. وقل في هذا الزمان من يذكر بالآخرة، ويحذر من الدنيا وغرورها.

كل ذلك يؤكد ضرورة الحذر من أهلها وضرورة الالتصاق بأهل الصلاح والزهد والإصلاح، والمعايشة المستمرة معهم، والإكثار من سماع المواعظ والقراءة في كتب الوعظ وسير الصالحين والزاهدين من سلف هذه الأمة وعلى رأسهم سيد الزاهدين نبينا محمد ﷺ وألا يكتفي بالزيارات المتفرقة أو القراءة المتفرقة، فإن نفعها في هذا الزمان قليلة؛ فالنفس إن لم يتوال عليها الوعظ والتذكير فإنها تلهو وتنسى مع الوقت إذا طال بعدها عن ذلك.

وهذا ما يوضحه ابن الجوزي رحمه الله تعالى في كون المواعظ يزول أثرها بعد إلقائها، ولا يستمر ذلك الأثر في النفس طويلًا -يقول رحمه الله -: (قد يعرض عند سماع المواعظ للسامع يقظة، فإذا انفصل عن مجلس الذكر عادت القسوة والغفلة، فتدبرت السبب في ذلك فعرفته، ثم رأيت الناس يتفاوتون في ذلك، فالحالة العامة أن القلب لا يكون على صفة واحدة من اليقظة عند سماع الموعظة وبعدها، لسببين:

أحدهما: أن المواعظ كالسياط، والسياط لا تؤلم بعد انقضائها إيلامها وقت وقوعها.

والثاني: أن حالة سماع المواعظ يكون الإنسان فيها مزاح العلة، قد تخلى بجسمه وفكره عن أسباب الدنيا، وأنصت بحضور قلبه، فإذا

عاد إلى الشواغل اجتذبته بآفاتها، وكيف يصح مع تلك الجواذب أن يبقى كما كان؟!)[١].

٨- ضرورة إحياء الوعظ في الأمة بمفهومه الشامل

ينبغي تكثيف طرح المواعظ في المحاضن التربوية ودور العلم وحلق التدريس والعلم وفي مخاطبة الناس في خطبة الجمعة والمحاضرات والكلمات والندوات ومدارسة الكتب والمؤلفات والأشرطة، التي تهتم بهذا الجانب من جوانب التربية والتزكية، وفي هذا المقام أنبه نفسي وأخواني المربين إلى أن يولوا هذا الجانب من جوانب التربية اهتمامهم، وأن يكون له الحظ الأكبر في التوجيه والتربية والطرح والمناقشة والمناصحة.

ومن الأمور المهمة التي ينبغي للمربين العناية الكبيرة بها في التربية أن يكونوا قدوات لمن يربونهم ويوجهونهم، وإلا فلن يكون لمجرد الكلام والنصيحة الجدوى في التحذير من الدنيا والتكاثر فيها والتحذير من الترف إذا لم يكن المربي قدوة لطلابه في الزهد وعدم الركون إلى الدنيا.

---

(١) صيد الخاطر. ص١

إذ كيف يطمع المربي في تغيير سلوك وأخلاق من يربيهم، وهم يرون الفصام والتناقص بين ما يقوله ويقرؤه لهم، وبين سلوكه وأحواله في نفسه وبيته ونمط حياته، والتربية بالقدوة تفعل ما لا تفعله مئات الكلمات والمقالات. أو ليس من المفارقات والتربية المشوهة أن يسمع المربي من أستاذه أو شيخه الحث على التقلل من الدنيا والتحذير من التكاثر فيها، ثم هو يرى شيخه من أهل التكاثر فيها، سواء في ملبسه أو مطعمه أو مسكنه أو مركبه أو غير ذلك من أعراض الدنيا.

٩- تعويد النفس ومن ثم اليد على السخاء والبذل في سبيل الله ﷻ

واليأس مما في أيدي الناس والسعي في طلب الرزق بدون مغالاة أو حرص أو خوف على فواته أو قطعه، والحذر من البطالة، والقعود عالة على الناس، وترك الأسباب بحجة التوكل على الله تعالى، والقناعة بما كتب الله ﷻ من الرزق واليقين بأن القليل من نعيم الدنيا يكفي لعبور هذه الدار وأن الذي ينبغي الاهتمام به والحرص عليه هو عيش الآخرة ونعيمها.

وأن يقدم لنفسه في الآخرة من النفقة والخير ما يجده عند الله ﷻ أحوج ما يكون إليه.

الخاتمة

الحمـدلله رب العالمين على تيسـيره وتوفيقـه. وأود في خاتمة هذه الرسـالة أن أنبه على ثلاث مسائل مهمة لها ارتباط وثيق بما سبق بيانه في الفصول السـابقة حول قوله سبحانه: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾. حيث لا يتم البحث إلا بها.

المسألة الأولى:

إن مـا ذكـر في ثنايـا البحـث في التحذيـر مـن الركـون إلى الدنيـا والتكاثـر فيها والتقلل منهـا لا يعني ترك العمل فيها وبذل الأسـباب في الكسب الحلال منها، كما لا يعني اعتزال الناس وترك الفساد ينتشر بينهـم دون مدافعـة له ولا إصلاحًـا وجهادًا كما لا يعنـي ذم الغنى إذا كان مـن مصدر حلال وفي إنفاق حلال (سـئل الإمام أحمد رحمه الله تعالى عـن الرجـل يكون معه ألف دينار، هل يكـون زاهدًا. قال: نعم بشرط أن لا يفـرح إذا زادت ولا يحـزن إذا نقصت)[1]. وقال شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة رحمه الله تعـالى: (والزهـد: ترك مـا لا ينفع في الـدار الآخرة، ومـا كل مـا يسـتعين به العبـد على طاعـة الله، فليـس تركه مـن الزهد المشروع)[2] وقـال أيضًـا: (والزهد قد يكون مـع الغنى، وقد يكون مع

(١) مدارج السالكين ٢/ ١١.
(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٨.

الفقر. ففي الأنبياء والسابقين الأولين ممن هو زاهد مع غناه كثير)[١] ويتحدث سيد قطب رحمه الله تعالى عن أثر الإيمان والعمل الصالح على الحياة الطيبة ورغد العيش في الدنيا والآخرة، وأنه لانفصام بين الدنيا والآخرة، وذلك في الدروس المستفادة من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٥ - ٦٦]، أسوقه بطوله لكبير فائدته.

يقول رحمه الله تعالى:

(**الدرس السادس**: أثر الإيمان وتطبيق شرع الله في الرخاء المعيشي وفي نهاية الدرس تجيء القاعدة الإيمانية الكبرى قاعدة أن إقامة دين الله في الأرض معناها الصلاح والكسب والفلاح في حياة المؤمنين في هذه الدنيا وفي الآخرة على السواء، لا افتراق بين دين ودنيا، ولا افتراق بين دنيا وآخرة، فهو منهج واحد للدنيا وللآخرة؛ للدنيا وللدين تجيء هذه القاعدة الإيمانية الكبيرة بمناسبة الحديث عن انحراف أهل الكتاب عن دين الله؛ وأكلهم السحت؛ وتحريفهم الكلم من بعد مواضعه، لينالوا عرضًا من أعراض هذه الأرض،

(١) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٨.

واتباع دين الله كان أجدى عليهم في الأرض والسماء وفي الدنيا والآخرة، لو أنهم اختاروا الطريق ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾.

إن هاتين الآيتين تقرران أصلًا كبيرًا من أصول التصور الإسلامي، ومن ثم فهما تمثلان حقيقةً ضخمةً في الحياة الإنسانية، ولعل الحاجة إلى جلاء ذلك الأصل، وإلى بيان هذه الحقيقة لم تكن ماسة كما هي اليوم؛ والعقل البشري والموازين البشرية والأوضاع البشرية تتأرجح وتضطرب وتتوه بين ضباب التصورات وضلال المناهج بإزاء هذا الأمر الخطير.

إن الله سبحانه يقول لأهل الكتاب، ويصدق القول، وينطبق على كل أهل كتاب: إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا لكفَّر عنهم سيئاتهم، ولأدخلهم جنات النعيم، وهذا جزاء الآخرة، وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل، وما أنزله الله إليهم من التعاليم، كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل، لصلحت حياتهم الدنيا ونمت، وفاضت عليهم الأرزاق، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم، من فيض الرزق، ووفرة النتاج، وحسن التوزيع،

وصلاح أمر الحياة، ولكنهم لا يؤمنون ولا يتقون، ولا يقيمون منهج الله إلا قلة منهم في تاريخهم الطويل، مقتصدة غير مسرفة على نفسها، وكثير منهم ساء ما يعملون....

... إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا وهذه هي الحقيقة الغائمة اليوم في أفكار الناس وعقولهم وضمائرهم وأوضاعهم الواقعية، لقد افترق طريق الدنيا وطريق الآخرة في تفكير الناس وضميرهم وواقعهم، بحيث أصبح الفرد العادي وكذلك الفكر العام للبشرية الضالة لا يرى أن هنالك سبيلًا للالتقاء بين الطريقين، ويرى على العكس أنه إما أن يختار طريق الدنيا فيهمل الآخرة من حسابه؛ وإما أن يختار طريق الآخرة فيهمل الدنيا من حسابه؛ ولا سبيل إلى الجمع بينهما في تصور ولا واقع، لأن واقع الأرضي والناس وأوضاعهم في هذه الفترة من الزمان توحي بهذا حقيقة. إن أوضاع الحياة الجاهلية الضالة البعيدة عن الله وعن منهجه للحياة اليوم تباعد بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، وتحتم على الذين يريدون البروز في المجتمع والكسب في مضمار المنافع الدنيوية أن يتخلوا عن طريق الآخرة؛ وأن يضحوا بالتوجيهات الدينية والمثل الخلقية؛ والتصورات الرفيعة والسلوك النظيف الذي يحض عليه الدين كما تحتم على الذين يريدون النجاة في الآخرة، وأن يتجنبوا تيار هذه الحياة وأوضاعها القذرة والوسائل التي يصل بها الناس في مثل

هذه الأوضاع إلى البروز في المجتمع والكسب في مضمار المنافع، لأنها وسائل لا يمكن أن تكون نظيفة، ولا مطابقة للدين والخلق، ولا مرضية لله سبحانه وتعالى، ولكن تراها ضربة لازب، ترى أنه لا مفر من هذا الحال التعيس، ولا سبيل إلى اللقاء بين طريق الدنيا وطريق الآخرة، كلا أنها ليست ضربة لازب، فالعداء بين الدنيا والآخرة؛ والافتراق بين طريق الدنيا وطريق الآخرة ليس هو الحقيقة النهائية، التي لا تقبل التبديل، بل إنها ليست من طبيعة هذه الحياة أصلًا، إنما هي عارض ناشئ من انحراف طارىء. إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة؛ وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا، وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة، كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا؛ وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض، كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الأخروي. هذا هو الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية، ولكن هذا الأصل لا يتحقق إلا حين تقوم الحياة على منهج الله، الذي رضيه للناس، فهذا المنهج هو الذي يجعل العمل عبادة، وهو الذي يجعل الخلافة في الأرض وفق شريعة الله فريضة. والخلافة عمل وإنتاج ووفرة ونماء وعدل في التوزيع، يفيض به الرزق على الجميع من فوقهم ومن تحت أرجلهم، كما يقول الله في كتابه الكريم.

... ويربط المنهج بين الفرد وربه رباطًا أقوى بالشعائر التعبدية التي يفرضها عليه؛ ليستوثق الرباط من تجدد صلته بالله في اليوم الواحد خمس مرات وفي العام الواحد ثلاثين يومًا بصوم رمضان وفي العمر كله بحج بيت الله وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة. ومن هنا قيمة هذه الفرائض التعبدية في المنهج الإسلامي إنها تجديد للعهد مع الله على الارتباط بمنهجه الكلي للحياة، وهي قربة لله يتجدد معها العزم على النهوض بتكاليف هذا المنهج، الذي ينظم أمر الحياة كلها، ويتولى شؤون العمل والإنتاج والتوزيع والحكم بين الناس في علاقاتهم وفي خلافاتهم، ويتجدد معها الشعور بعون الله ومدده على حمل التكاليف، التي يتطلبها النهوض بهذا المنهج الكلي المتكامل، والتغلب على شهوات الناس وعنادهم وانحرافهم وأهوائهم حين تقف في الطريق ...

... وهذه وتلك معًا هي مؤهلات الفردوس الأرضي والفردوس الأخروي معًا؛ والطريق هو الطريق، ولا فصام بين الدين والحياة الواقعية المادية، كما هو واقع في الأوضاع الجاهلية القائمة في الأرض كلها اليوم، والتي منها يقوم في أوهام الواهمين أنه لا مفر من أن يختار الناس الدنيا أو يختاروا الآخرة، ولا يجمعوا بينهما في تصور أو في واقع، لأنهما لا تجتمعان.

إن هـذا الفصام النكد، بين طريق الدنيـا وطريق الآخرة في حياة النـاس، وبـين العمل للدنيـا والعمل للآخرة، وبين العبـادة الروحية والإبـداع المادي، وبين النجـاح في الحياة الدنيـا وفي النجاح في الحياة الأخـرى، إنـما هو ضريبة بائسـة، فرضتها البشرية على نفسـها، وهي تـشرد عن منهج الله، وتتخذ لنفسـها مناهج أخرى من عند أنفسـها، معادية لمنهج الله في الأسـاس والاتجاه، وهي ضريبة يؤديها الناس من دمائهـم وأعصابهـم في الحياة الدنيا، فوق ما يؤدونـه منها في الآخرة، وهـو أشـد وأنكـى. إنهـم يؤدونها قلقًـا وحيرة وشـقاء قلـب وبلبلة خاطـر من جراء خـواء قلوبهم مـن طمأنينة الإيمان وبشاشـته وزاده وريـه، إذا هم آثـروا اطراح الديـن كله على زعم أن هـذا هو الطريق الوحيد للعمل والإنتاج والعلم والتجربة والنجاح الفردي والجماعي في المعـترك العالمـي، ذلـك أنهـم في هـذه الحالـة يصارعـون فطرتهم، يصارعـون الجوعة الفطريـة إلى عقيدة تملأ القلـب، ولا تطيق الفراغ والخـواء، وهي جوعة لا تملؤها مذاهب اجتماعية أو فلسـفية أو فنية على الإطلاق، لأنها جوعة النزعة إلى إله.

وهـم يؤدونها كذلك قلقًا وحيرة وشـقاء قلـب وبلبلة خاطر إذا هـم حاولوا الاحتفاظ بعقيـدة في الله، وحاولوا معها مزاولة الحياة في هـذا المجتمـع العالمي الذي يقوم نظامه كله، وتقـوم أوضاعه، وتقوم تصوراته، وتقوم وسائل الكسب فيه ووسائل النجاح على غير منهج

الله، وتتصادم في العقيدة الدينية والخلق الديني والسلوك الديني مع الأوضاع والقوانين والقيم والموازين السائدة في هذا المجتمع المنكود،وتعاني البشرية كلها ذلك الشقاء، سواء اتبعت المذاهب المادية الإلحادية أو المذاهب المادية التي تحاول استبقاء الدين عقيدة بعيدة عن نظام الحياة العملية، وتتصور أو يصور لها أعداء البشرية أن الدين لله وأن الحياة للناس، وأن الدين عقيدة وشعور وعبادة وخلق، والحياة نظام وقانون وإنتاج وعمل. وتؤدي البشرية هذه الضريبة الفادحة، ضريبة الشقاء والقلق والحيرة والخواء، لأنها لا تهتدي إلى منهج الله، الذي لا يفصل بين الدنيا والآخرة بل يجمع؛ ولا يقيم التناقض والتعارض بين الرخاء في الدنيا والرخاء في الآخرة بل ينسق.

ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة في فترة موقوتة، إذ نرى أممًا لم تؤمن ولا تتقي، ولا تقيم منهج الله في حياتها، وهي موفورة الخيرات مثيرة الإنباح عظيمة الرخاء. إنه رخاء موقوت حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت، وحتى تظهر كل آثار الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني، والآن تظهر بعض هذه الآثار في صور شتى، تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم، مما يجعل المجتمع حافلًا بالشقاء، وحافلًا بالأحقاد، وحافلًا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة، نتيجة هذه الأحقاد العظيمة، وهو بلاء على رغم الرخاء، وتظهر في الكبت

والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعًا من عدالة التوزيع، واتخذت طريق التحطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع، وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن، ولا يبيت ليله في سلام، وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره إن عاجلًا أو آجلًا إلى تدمير الحياة المادية ذاتها، فالعمل والإنتاج والتوزيع كلها في حاجة إلى ضمانة الأخلاق والقانون الأرضي وحده، عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل، كما نرى في كل مكان. وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم وبخاصة أشدها رخاء ماديًّا مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال، ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج، وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء، وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحًا كافيًا يلفت الأنظار وتظهر في الخوف التي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة؛ في هذا العالم المضطرب؛ الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون؛ فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية ولم ينتشر الموت بالسكتة وانفجار المخ والانتحار، كما انتشر في أمم الرخاء، وتظهر هذه الآثار كلها بصورة متقدمة واضحة في ميل بعض الشعوب إلى الاندثار والدمار، وأظهر الأمثلة الحاضرة تتجلى في الشعب الفرنسي،

وليس هذا إلا مثلًا للآخرين في فعل الافتراق بين النشاط المادي والمنهج الرباني؛ وافتراق الدنيا والآخرة وافتراق الدين والحياة؛ أو اتخاذ منهج للآخرة من عند الله، واتخاذ منهج للدنيا من عند الناس؛ وإيقاع هذا الفصام النكد بين منهج الله وحياة الناس، وقبل أن ننهي هذا التعليق على التقرير القرآني لتلك الحقيقة الكبيرة، نحب أن نؤكد أهمية التناسق في منهج الله بين الإيمان والتقوى وإقامة المنهج في الحياة الواقعية للناس، وبين العمل والإنتاج والنهوض بالخلافة في الأرض. فهذا التناسق هو الذي يحقق شرط الله لأهل الكتاب ولكل جماعة من الناس أن يأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم في الدنيا، وأن تكفر عنهم سيئاتهم، ويدخلوا جنات النعيم في الآخرة؛ وأن يجتمع لهم الفردوس الأرضي بالوفرة والكفاية مع السلام والطمأنينة، وفردوس الآخرة بما فيه من نعيم ورضوان، ولكننا مع هذا التوكيد يجب أن لا ننسى أن القاعدة الأولى والركيزة الأساسية هي الإيمان والتقوى وتحقيق المنهج الرباني في الحياة الواقعية، فهذا يتضمن في ثناياه العمل والإنتاج والترقية والتطوير للحياة فضلًا على أن للصلة بالله مذاقها الذي يغير كل طعوم الحياة؛ ويرفع كل قيم الحياة؛ ويقوم على كل موازين الحياة فهذا هو الأصل في التصور الإسلامي وفي المنهج الإسلامي وكل شيء فيه تجيء تبعًا له ومنبثقًا منه ومعتمدًا عليه، ثم يتم تمام الأمر كله في الدنيا والآخرة في تناسق واتساق،

وينبغي أن نذكر أن الإيمان والتقوى والعبادة والصلة بالله وإقامة شريعة الله في الحياة كل أولئك ثمرته للإنسان وللحياة الإنسانية، فالله سبحانه غني عن العالمين، وإذا شدد المنهج الإسلامي في هذه الأسس، وجعلها مناط العمل والنشاط؛ ورد كل عمل وكل نشاط ما يقوم عليها وعده باطلًا لا يقبل، وحابطًا لا يعيش، وذاهبًا مع الريح، فليس هذا، لأن الله سبحانه يناله شيء من إيمان العباد وتقواه وعبادته له وتحقيق منهجه للحياة، ولكن لأنه سبحانه يعلم أن لا صلاح لهم ولا فلاح إلا بهذا المنهج في الحديث القدسي عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيما روى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا**

في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله؛ ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[(١)]. وعلى هذا الأساس ينبغي أن ندرك وظيفة الإيمان والتقوى والعبادة وإقامة منهج الله في الحياة والحكم بشريعة الله، فهي كلها لحسابنا نحن لحساب هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعًا، وهي كلها ضروريات لصلاح هذه البشرية في الدنيا والآخرة جميعًا)[(٢)].

المسألة الثانية:

إن المطالبة بإحياء فريضة الوعظ والتذكير بالآخرة والحذر من الدنيا والركون إليها والتكاثر فيها، لا يعنى به ذلك الوعظ المعروف الذي يمارسه بعض الوعاظ، جزاهم الله خيرًا، للتذكير بالموت وأهوال يوم القيامة وما فيها من جنة ونار فحسب. نعم هذا من الوعظ ولابد منه. ولكن الوعظ والتذكير بالآخرة والخوف من الله ﷻ وعذابه أشمل من هذا الذي هو معروف بين الناس إنه ذلك الوعظ الذي ينبغي أن يصاحب كل درس وكل محاضرة وكل خطبة

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧).
(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٣ عند الآيتين رقم (٦٥، ٦٦) من سورة المائدة.

وكل عمل وسلوك يربط ذلك كله بأسماء الله ﷻ الحسنى وما تثمره في القلوب من إخلاص ومحبة وخوف ورجاء ويقين وزهد، وغيرها من أعمال القلوب، كما ينبغي أن تربط بمعرفة حقيقة الدنيا والآخرة وأن يحسب ليوم القيامة حسابه وما فيه من الأهوال والحكم بين الناس بالقسط والإنصاف للمظلوم من الظالم وأخذ حقه ممن ظلمه مهما دق وصغر قال الله ﷻ: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. ولو تدبرنا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية لرأينا واضحًا جليًّا فلا نكاد نجد آية أو حديثًا صحيحًا إلا ويختم أو يتضمن التذكير باليوم الآخر أو باسم أو اسمين من أسماء الله ﷻ يناسب سياق الآية أوالحديث ولو كانت هذه الآية أو الحديث في موضوع دنيوي أو حكم شرعي في المعاملات بين الناس وعلى سبيل المثال:

- قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥].

- وفي وسط ذكر أحكام الطلاق وعدة المطلقة وعدة المتوفى عنها زوجها ونفقة المطلقة قال الله ﷻ: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

• وبعد ذكر آيات الربا والنهي عنه قال الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] والمقصود أن الوعظ هو موضوع القرآن وهدفه الأساس، قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧ – ٥٨].

وفي الحديث التالي يتبين لنا أن إنشاء واعظ الله في قلب المؤمن هو الصمام الأساس في تحقيق التقوى بفعل المأمور وترك المحظور محبة وخوفًا ورجاءً، وهذا يشمل كل خطرات القلوب وألفاظ اللسان وعمل الجوارح. وهذا هو الوعظ الشامل المطلوب بناؤه قال ﷺ: **«ضرب الله تعالى مثلًا صراطًا مستقيمًا وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس! ادخلوا الصراط جميعًا ولا تعوجوا. وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن فتحته تلجه، فالصراط الإسلام والسوران حدود الله تعالى، والأبواب المفتحة: محارم الله تعالى. وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله. والداعي من فوق: واعظ الله في قلب كل مسلم»**[1].

(١) رواه أحمد (١٧٦٣٤) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (١٩١).

لذا أنصح نفسي ومشائخي العلماء وإخواني الدعاة والمجاهدين وطلبة العلم وجميع الخطباء أن يربطوا جميع دروسهم ومحاضراتهم وخطبهم وجميع علومهم بهذا الجانب المهم من جوانب التربية والتزكية، ألا وهو جانب الوعظ بتعظيم الله ﷻ ومحبته والخوف منه ورجائه وإنشاء هم الآخرة في النفوس، وذلك في كل الدروس والمحاضرات والخطب بما في ذلك المواضيع والدروس العلمية البحتة كدروس العقيدة ودروس الفقه وأصوله وعلوم النحو والفرائض وغيرها، وهذا هو الغاية من العلم بجميع فروعه، فاقتضاء العلم والعمل والخشية لله ﷻ. وهنا كلام نفيس للإمام ابن رجب رحمه الله تعالى يؤكد هذه المعاني، قال رحمه الله تعالى:(ومن وقف على هذا وأخلص القصد فيه لوجه الله ﷻ واستعان عليه أعانه وهداه ووفقه وسدده وفهمه وألهمه. وحين إذ يثمر له هذا العلم ثمرته الخاصة به، وهي خشية الله، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨]، قال ابن مسعود وغيره (كفى بخشية الله علمًا وكفى بالاغترار بالله جهلًا) وقال بعض السلف: (ليس العلم بكثرة الرواية ولكن العلم الخشية) وقال بعضهم:(من خشي الله فهو عالم ومن عصاه فهو جاهل) وكلامهم في هذا المعنى كثير جدًّا.

وسبب ذلك أن هذا العلم النافع يدل على أمرين:

أحدهما: على معرفة الله وما يستحقه من الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال الباهرة. وذلك يستلزم إجلاله وإعظامه وخشيته ومهابته ومحبته ورجاؤه والتوكل عليه والرضا بقضائه والصبر على بلائه.

والأمر الثاني: المعرفة بما يحبه ويرضاه وما يكرهه ويسخطه من الاعتقادات والأعمال الظاهرة والباطنة والأقوال، فيوجب ذلك لمن علمه المسارعة إلى ما فيه محبة الله ورضاه، والتباعد عما يكرهه ويسخطه. فإذا أثمر العلم لصاحبه هذا فهو علم نافع، فمتى كان العلم نافعًا ووقر في القلب فقد خشع القلب لله وانكسر له، وذل هيبة وإجلالًا وخشية ومحبة وتعظيمًا. ومتى خشع القلب لله وذل وانكسر له قنعت النفس بيسير الحلال من الدنيا وشبعت به، فأوجب لها ذلك القناعة والزهد في الدنيا، وكل ما هو فانٍ لا يبقى من المال والجاه وفضول العيش الذي ينقص به حظ صاحبه عند الله من نعيم الآخرة.... فالعلم النافع ما عرف به العبد ربه ودل عليه ووحده وأنس به واستحى من قربه، وعبده كأنه يراه.

ولهذا قالت طائفة من الصحابة: (إن أول علم يرفع من الناس الخشوع) وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (إن أقوامًا يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع) وقال الحسن: (العلم

علمان، فعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم. وعلم في القلب فذلك العلم النافع) وكان السلف يقولون: (إن العلماء ثلاثة. عالم بالله، وعالم بأمر الله. وعالم بالله ليس بعالم بأمره. وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، وأكملهم الأول، وهو الذي يخشى الله ويعرف أحكامه))[١].

المسألة الثالثة:

إن مما يعين على نشر الوعظ في الأمة وقبولها له وتأثيره فيها إخلاص الواعظ لله ﷻ والحذر من طلب المال والجاه من وعظه وتخليص الوعظ مما شابه من المخالفات الشرعية والبدع المحدثة التي ابتدعها كثير من القصاص في القديم والحديث مما يخالف هدي النبي ﷺ وصحبه الكرام والتابعين لهم بإحسان. يقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى: (فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث. وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد، والرقائق، والمعارف، وغير ذلك والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولًا. ثم الاجتهاد على الوقوف في معانيه وتفهمه ثانيًا. وفي ذلك كفاية لمن عقل. وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل)[٢].

(١) فضل علم السلف على الخلف ص٧.
(٢) فضل علم السلف على الخلف ص٦.

وأسوق فيما يأتي بعض المخالفات التي يجب على الوعاظ أن يجتنبوها حتى تؤدي الموعظة أثرها وثمارها في القراء والسامعين:

المخالفة الأولى:

الجهل والقول بلا علم: وذلك أن بعض الوعاظ هداهم الله عندما يجد نفسه واعظًا للناس بلسانه أو قلمه، ولا سيما إذا كان متكلمًا فصيحًا، فيظن بنفسه خيرًا، وأنه على درجة من العلم والتقى، فيدفعه ذلك إلى أن يفتي في بعض مسائل الدين من عقيدة أو أحكام بغير علم أو بنصف علم، فيضل و يُضل، فعلى من يدخل في وعظ الناس وإرشادهم أن يكون على علم بما يقول وعلى دراية من الشريعة وفهم نصوصها، فيما يوجه الناس إليه، فإن الله ﷻ يحب الكلام بعلم وعدل، ويكره الكلام بجهل وظلم. ومما يجدر ذكره هنا أن كثيرًا ممن يتصدر للوعظ مزجى البضاعة في علوم الشريعة ضعيف التحصيل منها.

المخالفة الثانية:

وهي فرع عن سابقتها، وذلك أن بعض الوعاظ ولضعف علمه بالشريعة رواية ودراية، نجده يأتي بالغرائب في وعظه من أحاديث ضعيفة واهية أو موضوعة أو قصص غريبة، قد تكون مخالفة لأصول الشريعة وبديهة العقول، لذا وجب على الوعاظ أن ينقوا وعظهم من الاستدلالات الواهية والأخبار الغريبة، وفيما ورد من الكتاب

والسنة الصحيحة غنية عما سواهما. يقول أحد السلف عن مثل هؤلاء الوعاظ: (يأخذون الحديث منا شبرًا ويجعلونه ذراعًا).

المخالفة الثالثة:

يجتهد بعض الوعاظ في ذكر بعض الأخبار والقصص الكاذبة بحجة التأثير في الناس وترغيبهم أو ترهيبهم. وليس في ذلك حجة، لأن الغاية لا تبرر الوسيلة، وقدوتنا في هذا سيد الواعظين عليه الصلاة والسلام، فكان لا يقول ولا يخبر إلا حقًّا وصدقًا، فكيف نرغب عن سنته ﷺ ونقدم عليها الذي هو أدنى؟

المخالفة الرابعة:

المبالغة في رفع الصوت في أثناء الوعظ، وكأنها صياحًا ونياحًا، ولا سيما مع المكبرات الصوتية حتى يضج المسجد وما حوله، ويحصل من جراء ذلك الإزعاج الشديد للسامعين، مما يضعف أثر الوعظ عليهم، ويودوا لو أنه سكت، ومن ذلك إملال السامعين وشعورهم بطول وقت الموعظة وعدم التحضير لها.

المخالفة الخامسة:

إظهار المبالغة والزيادة من الواعظ في التخشع وتصنع البكاء مما يخشى فيه على الواعظ من الرياء والسمعة، ويلحق بذلك إظهار

التفاصح والتشدق في الحديث، وإظهار حفظ المنقول من الكلام نثره وشعره.

المخالفة السادسة:

قيام بعض الوعاظ بتلحين وعظه والتغني به، وبعضهم يكتفي من ذلك بتلحين الآيات القرآنية والأشعار الزهدية. وقد ذكر الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله تعالى أن هذا من البدع ولم ينقل عن السلف فعلها. يقول رحمه الله تعالى: (مما أحدثه الوعاظ وبعض الخطباء مغايرة الصوت عند تلاوة الآيات لنسق صوته في وعظه أو الخطابة وهذا لم يعرف عند السالفين، ولا الأئمة المتبوعين، ولا تجده لدى أجلاء العلماء في عصرنا، بل يتنكبونه، وكثير من السامعين لا يرضونه، والأمزجة مختلفة، ولا عبرة بالفاسد منها، كما أنه لا عبرة بالمخالف لطريقة صدر هذه الأمة وسلفها، والله أعلم)[1].

المخالفة السابعة:

المبالغة من بعض الوعاظ في التزيين والتجمل في الثياب والهيئة والعباءات الفاخرة، وكذلك التكلف والإسراف في نفقات السفر لإلقاء المواعظ، وكذلك في المآكل والمساكن والمراكب، وقد يكون هذا على حساب الداعين للواعظ القادم لبلدهم. هذا مع أن الواعظ في وعظه قد يزهد في

(١) بدع القراء القديمة والمعاصرة ص٣٢.

الدنيا ويحذر من الركون إليها والتكاثر فيها، ويرغب في الآخرة، فما عسى أن يكون شعور السامعين له، وهم يرون التناقض بين القول والعمل؟

المخالفة الثامنة:

موافقة بعض المتصوفة في طريقة وعظهم وتقليدهم في بعض بدعهم وشطحاتهم، كالدعوة إلى ترك الدنيا وترك الأسباب والحث على اعتزال الناس بإطلاق وتغليب الخوف على الرجاء وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله تعالى بحجة أن في ذلك فتنة.

وبعد:

فهذا ما يسر الله ﷻ به، ووفق إليه من الكتابة في هذا الموضوع الجلل، فما كان فيه من صواب فمن الله ﷻ، فهو المان المتفضل به وحده، وأحمده وأشكره على ذلك. وما كان من خطأ وانحراف فمن نفسي والشيطان وأستغفر الله ﷻ من ذلك كله، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين

مساء الأربعاء ٩/ ٣/ ١٤٣٦هـ